دكتور محمد حسن شرشر
أستاذ البلاغة والنقد
جامعة الأزهر

لُبَابُ المَعَانِي

الجـزء الأول

الطبعة الأولى

دكتور محمد حسن شرشر
أستاذ البلاغة والنقد
جامعة الأزهر

لُبابُ المعاني

الجـزء الأول

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفضل خلق الله أجمعين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهديه وسار على نهجه إلى يوم الدين .

« وبعد » :

فإن البلاغة أرفع علوم العربية درجة ، وأعلاها منزلة ، وأسماها مكانة لأنها إلى جانب أنها ترشد الذوق الفنى إلى الكمال ، وتكشف عما فى لغتنا الجميله من نفائس و كنوز ، وتغرس فى نفوس دارسيها القدرة على الإبداع فيما يقولون ، فهى توقفنا عن موطن السر من إعجاز القرآن الكريم عن إيمان ويقين ، لا عن محاكاة وتقليد ، وتبين ماحواه من بارع اللفظ ، ورائع الأسلوب ، وماتضمنه من بيان وقف أمامه فرسان البلاغة واجمين ، وخر له عباقرة البيان ساجدين .

ومن ثم فقد جعل أبو هلال العسكرى علم البلاغة أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه .

يقول أبو هلال : وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة ، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ماخصه الله به من حسن التاليف ، وبراعة التركيب ، وماشحنه به من الإيجاز البديع ، والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة ، وجلله من رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمة وجزالتها ، وعذوبتها وسلاستها ، إلى غير ذلك من محاسنه التى عجز الخلق عنها ، وتحيرت عقولهم فيها .

فينبغى من هذه الجهة أن يقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد

توحيد الله ومعرفة عدله ، والتصديق بوعده ووعيده على ما ذكره ، إذ كانت المعرفة بصحة النبوة تتلو المعرفة بالله جل اسمه(١) .

ويسعدنى أن أقدم هذه الدراسات فى علم المعانى « القسم الأول » وقد توخيت فيها حسن اللفظ وشرف المعنى ، وإلى جانب الحفاظ على القواعد والأصول البلاغية ، فقد تجملت بالأساليب الأدبية الرفيعة ، متحلية بالشواهد الناصعة ، والبراهين الساطعة من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وأرباب الفكر القويم ، حتى تكون عوناً على تذوق البلاغة التى هى أشرف علوم العربية غاية .

والله أسأل أن ينفع بها ، وأن تكون فى صحيفتى يوم الدين ، يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؟

د . محمد حسن شرشر

المعادى فى ١٦ من ذى القعدة ١٤٠٥ هـ
٢ من أغسطس ١٩٨٥ م

---

(١) مقدمة الصناعتين .

تمهيد فى نشأة البلاغة

زخر الأدب الجاهلى بروافد عذبة استقت البلاغة منها ، فقد كان أبو أمامة زياد بن معاوية النابغة الذبيانى حكم سوق عكاظ تضرب له قبة من أدم ، فتأتيه الشعراء ، فيعرضون عليه أشعارهم ، فيقول فيها كلمته ومن ينوه به تطير شهرته فى الآفاق .

يروى أنه جلس للفصل مرة ، وتقاطر عليه الشعراء ينشدون بين يديه أجود ما أحدثوه ، وكان فيمن أنشده أبو بصير ميمون أعشى بنى قيس ، فما إن سمع قصيدته حتى قضى له ، ثم جاء من بعده كثير من الشعراء فيهم حسان بن ثابت الأنصارى فأنشدوه ، وجاءت فى أخريات القوم تماضر بنت عمرو بن الشريد الخنساء ، فأنشدته رائيتها التى ترثى فيها أخاها صخر بن عمرو ، والتى تقول فيها :

وإن صخراً لمولانا وسيدنا　　وإن صخرا إذا نشتو لنحار
وإن صخراً لتأتم الهداة به　　كأنه علم فى رأسه نار

فيروقه هذا القول ، ويأخذ بنفسه ، فيقول للخنساء « لولا أن أبابصير أنشدنى قبلك لقلت إنك أشعر الجن والإنس » ، فقال حسان : « أنا والله أشعر منها ومنك » ، فيقبل عليه أبو أمامه فيسأله : « حيث تقول ماذا » ؟ فيقول : حيث أقول :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دماً
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق
فأكرم بنا خالا وأكرم بنا أبنما

فيقبل عليه النابغة فيقول له : إنك شاعر ، ولكنك أقللت جفناتك

وسيوفك وقلت « يلمعن بالضحى » ولو قلت « يبرقن بالدجى » لكان أبلغ فى المديح ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً ، وقلت : « يقطرن من نجدة دما » ، فدللت على قلة القتل ولو قلت : « يجرين » لكان أكثر لانصباب الدم ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، ولن تستطيع أن تقول :

فإنك كالليـــل الذى هو مدركى
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع(١)

وكلام النابغة يدل على معرفة بملاءمة الكلمة لموضعها .

هذا إلى جانب ماعرف عن زهير بن أبى سلمى من تنقيحه الشعر وتجويده ، وما أثر عن أكثم بن صيفى من قوله : « البلاغة الإيجاز » مما يؤكد على أن الشعراء حينئذ كانوا يقفون عند اختيار الألفاظ والمعانى والصور ، وكانوا يسوقون أحياناً ملاحظات لاريب فى أنها أصل الملاحظات البيانية فى بلاغتنا العربيـة ، ومن يتصفح أشعارهم يجدها تزخر بالتشبيهات والاستعارات ، وتتناثر فيهـــا من حين إلى حين ألوان من المقابلات والجناسات ، مما يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يعنون عناية واسعة بإحسان الكلام والتفنن فى معارضه البليغة(٢) .

وقد ارتقت العناية بالدراسات البلاغية بطلوع فجر الإسلام ، فقد كان القرآن الكريم معجزة الرسول ﷺ الخالدة حجة بيانية ، واستدعت

---

(١) الأغانى ج ٩ ص ٣٤٠ ، ومقدمة فى نشأة البلاغة للشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ص ٦

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ١٣

الموازنة بين أسلوبه والأساليب الأخرى التنبيه إلى جمال اللفظ وشرف المعنى والتأمل فى صور البيان .

ومن ثم فقد ألفت الكتب الكثيرة التى تدور حول معانى القرآن ومجازه ، وسر إعجازه ، والحديث الشريف وجميل بيانه ، والأدب العربى وما فيه من قيم جمالية .

• • •

مقدمة لدراسة البلاغة

النقد والبلاغة

النقد الأدبي مكون من كلمتين «أدبي» منسوب إلى الأدب ، وقديما قد عرف العرب من معاني الأدب أنه الخلق المهذب والطبع القويم ، والمعاملة الكريمة للناس .

نرى هذا المعنى في النص الجاهلي الذي ورد عن عتبة بن ربيعة ، وهو يصف لابنته هند زوجها أبا سفيان من غير أن يسميه لها ، فقد جاء في الوصف «يدر أرومته»(١) .

وعز عشيرته ، يؤدب أهله ولا يؤدبونه » وواضح من هذا النص أن المراد به هو أنه ذو خلق نبيل، وأنه يأخذ أسرته باتباع هذا الخلق النبيل .

وفي رد هند بنته ، ما يدل على هذا المعنى أيضا إذ قالت : «إني سآخذه بأدب البعل » تريد أني سأعامله بالخلق الكريم الذي ينبغي أن يعامل به الزوج .

ثم عرف في صدر الإسلام بمعنى الثقافة ، يدلنا على ذلك ما روى أن عليا رضي الله عنه قال الرسول عليه الصلاة والسلام : يارسول الله، نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره» فقال الرسول عليه الصلاة والسلام «أدبني ربي فأحسن تأديبي وربيت في بني سعد»(٢) .

فليس التأديب هنا معناه التهذيب الخلقي كما قد يتراءى لمن يقرأ جملة

---

(١) أصله

(٢) أصول النقد الأدبي ٣ ، ٤

الرسول عليه السلام مقطوعة عن السؤال ، ولكن معناه التثقيف والتعليم .

ثم شهدا القرن الثالث الهجرى تحديد المعنى الأدب ، وأنه المأثور من الشعر والنثر وما يتصل بهما أو يفسرهما .

فالمبرد يقول فى صدر كتابه «الكامل» هذا كتاب ألفناه يجمع ضروبا من الآداب ما بين كلام منثور ، وشعر مرصوف ، ومثل سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة(١) .

هذا . وخير تعريف الأدب : « أنه التعبير عن الحياة أو بعضها بعبارة جميلة »(٢) .

أما كلمة « نقد » فقد عرف العرب لها معانى كثيرة :

منها : نقدت الدراهم وانتقدتها ، إذا ميزت جيدها من رديئها ، وأخرجت زائفها .

ومنها « العيب » كما فى حديث أبى الدرداء : « إن نقدت الناس نقدوك وإن تركتهم تركوك ، ومعنى نقدتهم عبتهم(٣) .

وكان لمعنى النقد من التمييز بين الجيد والردىء من الأشياء ، ما يبرر إضافة هذه الكلمة إلى الشعر حينا ، وإلى النثر حينا آخر وإلى الكلام بعامة مرة ثالثة وأخذ الناس يقولون: نقد الكلام ، وهو من نقدة الشعر ونقاده وانتقد الشعر على قائله(٤) .

---

(١) الكامل ١ ، ٢ (٢) النقد الأدبى ١٧
(٣) لسان العرب
(٤) أساس البلاغة

واستخدم المؤلفون مفهوم هـذا التعبير « تقويم الشيء والحكم عليه بالجودة أو الرداءة ».

واستخدمه قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠ هـ في كتاب نقد الشعر ونقد النثر ثم مضى الناس على أثره ، فابن رشيق المتوفى سنة ٤٦٣ هـ يعنون كتابه بـ « العمدة في صناعة الشعر ونقده ».

وإذا كان العرب لم يعرفوا هـذا التعبير الحديث إلا متأخرا ، فإنهم قد عرفوا النقد الأدبي عملا ، منذ عصورهم المبكرة ، فقد نقلت إلينا ملحوظات نقديه على الشعر منذ العصر الجاهلي .

كما كان بعض الشعراء يحبسون أشعارهم عندهم حولا كاملا ينتجون في بعضه ثم يهذبون ما ينتجون ، وبعدئذ يعرضونه على الناس ، وهم عندما يهذبون انتاجهم إنما ينقدون ما يقولون . ويتخيرون له أحسن مظهر يبدو فيه النص رائعا جميلا(١) .

واعتمد النقد في نشأته الأولى أيام العصر الجاهلي على السليقة والفطرة يستمد منها أحكامه ، ويصدر عن الذوق فيما يبديه من الآراء .

ومن ثم فقد جاء اختيارهم القصائد المشهورة التي سموها المعلقات ؛ وبهذا لم يكن النقد مبنيا على قواعد فنية ، وإنما هو لمحة الخاطر والبديهة الحاضرة .

وتابع النقد خطاه في صدر الإسلام ، وإن كان نقدا فطريا يقف عند حد الاستحسان أو الاستهجان من غير إبداء الأسباب في أغلب الأحوال اللهم إلا ما روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : أنشدوني لأشعر شعرائكم

---

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب ٥

قيل : ومن هو ؟ قال : زهير ، قيل : وبم صار كذلك ؟ قال: كان لا يعاظل بين القول ولا يتبع حوشى الكلام ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه(١) ، فإنه بهذا التعليل قد أبدى سبب إعجابه بزهير .

ويسير النقد بخطى واسعة إلى الأمام فى العصر العباسى ، وكان النقد حرا طليقا يتناول النص الأدبى من نواحيه المختلفة ، فحينا يقف الناقد عند المعنى فيعرض له من ناحية الصحة والخطأ ، والصدق والكذب والاقتصاد والمبالغة ، والابتكار والتقليد ، والخصوصية والعموم ، إلى غير ذلك من النوحى التى تناولوا بها المعنى .

وحينا يقف عند إحساس الأديب فيتبين قوة تأثيره فى النفس، ومخالطته للقلب ، أو مدى إنسانيته وشذوذه .

وحينا يقف عند خياله ليرى روعة تشبيهه أو قوة استعارته ، أو جمال كنايته .

وحينا يقف عند أسلوبه ليدرس قوته أو ضعفه، ووضوحه أو غموضه وجماله أو قبحه ، وما فيه من الحسن الطبيعى أو المتكلف ، أو غير ذلك مما يعرض للأسلوب من الصفات .

وحينا يعرض لفنون الشاعر ، وما تفوق فيه من بينها ، وما انفرد به أو شورك فيه .

وحينا يعرض للموازنة بين الشعراء من حيث أساليبهم حينا وفنونهم حينا ومعانيهم حينا آخر .

---

(١) عاظل فى الكلام عقده ، ووالى بعضه فوق بعض وكرره ، والحوشى من الكلام : الوحشى الغريب.

وحينا يعرض لبيئة الشاعر متبينا أثرها فى لين شعره ، أو فخامته وجزالته ولثقافة الأديب ، ومدى ماينبغى أن يظهر فى أدبه أويدع،وحينا يعرض لغير ذلك من كل ما يكون فيه تقويم الأدب أو الأديب .

حتى جاء عبد القاهر الجرجانى فدرس هذا التراث الذى خلفه السابقون، وألف كتابه « دلائل الإعجاز » يشرح فيه نظرية « النظم » كما ألف كتابه « أسرار البلاغة » متناولا أهم المسائل البلاغية والنقدية فى أسلوب قشيب وحلة زاهية .

ثم جاء بعده أبو يعقوب يوسف السكاكى ملخصا ماشرحه عبد القاهر ومقسما علوم البلاغة إلى معان وبيان وبديع .

ثم اتجهت جهود العلماء إلى هذه العلوم ، وأجدين فيها الأسس لتقويم النصوص الأدبية مغفلين تقريبا النواحى الأخرى التى كان الناقد الأدبى يجول فيها بقلمه ولسانه .

وهكذا تحول النقد إلى دراسة بلاغية ، وأخذ نموه يسير فى الإتجاه البلاغى،فانحصر فيما تتناوله هذه العلوم من أبواب ومسائل بعدأن كان حرآ طليقا ذا ميدان واسع ، رحب الجوانب فسيح الأرجاء .

ويتبين من هذا أن علوم البلاغة تتناول بعض مسائل النقد الأدبى ، فهى تتناول شروط فصاحة الكلمة والكلام وبلاغته،كما يدرس علم المعانى مايستفاد من وضع الجملة على نحو خاص فيه تقديم أو تأخير ، وذكر أو حذف ، ووصل أو فصل إلى غير ذلك مما يتناوله هذا العلم من مسائل تدور كلها حول ما يكسب الجملة القوة والوضوح .

أما علم البديع فمسائله تدور حول مايكسب الجملة الجمال .

ويتناول علم البيان دراسة وسائل الخيال عند العرب من تشبيه واستعارة

وكناية، يحـدد ذلك كله ، ويضرب له الأمثال ، ويبين المقبول منه ، وما لاترضى عنه الأذواق .

فليست علوم البلاغة بشيء منفصل عن النقد الأدبى، بل هى جزء أساسى منه ومعيار من معاييره الأصيلة ، وهى التى عكف عليها العلماء ، ووقفوا عليها معظم جهودهم(١).

إن البلاغة تمثل نظرية الفن الأدبى عند هذه الأمة ، وهى التى كانت تشرع له بخلاصة الخبرات والأذواق طوال ما سلف من عصور القوة والازدهار فى حياة الأمة العربية والإسلامية .

والبلاغة فى اللغة العربية وفى غيرها من اللغات الأخرى إقوام منهج من مناهج النقد الأدبى الأصيل ، وهو مايسمى « بالمنهج الفنى » أو المنهج البيانى، وهو أقدم مناهج النقد ، وأرسخها قدماً فى تاريخ الآداب الإنسانية كلها ، لأنه يتخذ مقاييسه من أصول هـذا العلم الجمالى ، وأعنى به علم البلاغة(٢) .

إن البلاغة تقنين للأدب ، وتشريع للأدباء ، ورسم لمناهج الإجادة ، وقد أصبحت فنون البيان التى اشترك فى استنباطها العلماء والأدباء والنقاد من أهم الأسس التى كانت عليها صناعة النقد الأدبى.

ومن الأدلة العملية على ذلك كتاب « الموازنة » للآمدى الذى نجد فى ثناياه عرضا للبلاغة وآراء جيدة فى فنونها وفى ألقابها ، أوردها وهو يقيس بها شعر الشاعرين الكبيرين، ويوازن بينهما فى الإجادة والإبداع، ومن ذلك قوله وهو يعدد أخطاء أبى تمام: وأنا أذكر هذا الجزء الرذل من

---

(١) أسس النقد الأدبى عند العرب ٨ .

(٢) مقدمة البيان العربى .

ألفاظه والساقط من معانيه ، والقبيح من استعاراته ، والمستكره المعقد من نسجه ونظمه .

إن البلاغة بحق معيار من معايير النقد الأدبي ، ودعامة من دعائمة.

فبميزان النقد نستطيع أن نقوم العمل الأدبي، ونميز الطابع الفني الغالب عليه كما أننا نستخدم نفس الأداة — النقد — لنفسر مايمكن أن يوحى به العمل الأدبي إلى قارئه أو سامعه، فكثيراً ما نغمض المعانى أو تختفي ظلالها وراء ألفاظها ، فيأخذ الناقد فى توضيح هذه المعانى ، وإبراز ما يمكن أن ينفذ إليه .

أما ميزان البلاغة فنحن نمسك به لنعرض مافى العمل الأدبى من طرق أداء المعانى ، ولنفسر به وسائل الإبانة عما فى نفس القائل ، كما أننا نركن إلى هذه الأداة — البلاغة — لفهم الكيفية التى تناول بها الأديب اللفظة المفردة ، أو مجموعة الألفاظ التى تكونت منها العبارة ، وننظر إلى الإستعمال الذى شاء الأديب أن يصوغ معانيه به ، أو ننظر إلى القالب الذى صب فيه مكنون نفسه باعتبار أن النص الأدبى هو الوعاء الذى يستقبل الشحنة النفسية والعاطفية والعقلية التى تصدر عن الأديب .

وهذا الميزان البلاغى يمكننا من معرفة طبيعة استعمال الكاتب للألفاظ، ومدى استخدامها فى معانيها الحقيقية أو الخروج بها إلى معان مجازية، وهل روعى فى الكتابة مايسمى «بمقتضى الحال» وما كل ذلك إلا معايير لتقويم العمل الأدبى .

وإذا كان النقد يتناول النص الأدبى فى مجموعة مفسراً ومحللا فإن أول مايميز البلاغة عنه هو أنها تتناول فى أبحاثها جزئيات النص الأدبى .

فالمتذوق الذى يدرس نصاً أو قصيدة من وجهة نظر البلاغة يبدأ ليقف أمام جزئياتها . ويحلل هذه الجزئيات .

هذا. وقد أصبحت الدراسات البلاغية رافداً عذباً يستعين به الناقدون، فهم حين يفسرون النصوص الأدبية، ويعللون لما فيها من جمال وحسن، أو قبح وتعقيد، يذكرون ما فيها من أوجه علوم البلاغة كالإستعارة والتشبيه والإيجاز والإطناب وغير ذلك كما يذكرون ما به من محسنات بديعيه كالجناس والطباق والتورية وقد تولد عن هذا المزج بين البلاغة والنقد أعمال نقدية رفيعة.

ومن الخير أن نعرف أن الميزانين يتبادلان التأثير في الأدب، فهو يستفيد منهما الهداية لخير الطرق التعبيرية، وهما يستمدان وجودهما منه فالنقد والبلاغة كانا دائماً الينبوع الذى استقى منه الأدباء كيفية صياغة أعمالهم الباقية(١).

---

(١) الأساس فى النقد والبلاغة ٨.

اللفظ والمعنى

إن الأدب فى سائر ألوانه تعبير جميل عن فكرة جميلة .

وفن الأدب ينهض على دعامتين هما : فكره الأدب وصورته ، وهما مر مافيه من عظمة وجمال ، غير أن هذه العظمة ، وذلك الجمال لايقعان موقعهما ، ولا يحدثان أثرهما إلا إذا انضمت إليهـــا دعامة ثالثة ، وهى مطابقته لمقتضى الحال .

وقد كانت تلك الدعامات الثلاث أهم ماشغل علماء الأدب ونقاده مهما تباعدت أزمانهم ، وتباينت أهدافهم واختلفت مناهجهم ، وكان ما وصلوا إليه من أسباب الإصابة فى تلك النواحى ، هو الأساس الذى قامت عليه الدراســات البلاغية التى انتظمت تلك الجهود ، وضمت شـتاتها فى قواعد البلاغة وفنونها التى تعد تشريعات للأدب ، وتقدم إلى الأدباء ليفيدوا منها فى صناعتهم ، ويتخذ منها النقاد مقاييس لاستجادة الأدب وتقدير الأدباء .

وأقدم الآثار التى عرفها تاريخ البلاغة ، وفيه الإشارة إلى هذه الدعائم الثلاث هو تلك الصحيفة التى كتبها بشر بن المعتمر المتوفى سنة ٢١٠هـ .

وفيها يتحدث عن : اللفظ والمعنى .

فيرى أن أحسن الكلام وأروعه ماكان من « لفظ شريف ، ومعنى بديع ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ومن أراغ معنى كريماً فليلتمس لفظاً كريماً ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما »(١) .

---

(١) البيان والتبيين حـ ١ ص ١٢٦

وتدل هذه العبارات على أن بشراً يساوى فى المنزلة بين اللفظ والمعنى ويحفظ لكل منهما حقه من وجوب العناية به، والحكم على الأديب بالفنية بقدر مايجيد فيهما معاً ، ولانجد فى هذه العبارات ما يشعر بالغض من قيمة أحدهما أو الانتصار له على حساب الآخر.

وتلك هى النظرة الأولى ، وهى فى الوقت نفسه النظرة المثلى إلى الفن الأدبى ، وما ينبغى أن يتوافر فى ركنيه من الجودة . ووجوب رعايتهما والإهتمام بكل منهما .

وكان للتنبيه إلى هذين العنصرين أثره فى فتح باب القول فيهما على مصراعيه ، فبحث الباحثون فيما يكون للمعنى وفيما يكون للفظ .

ورأى قدامه بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧هـ ، أن شرط اللفظ أن يكون سمحاً سهل مخارج الحروف من مواضعها ، عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة ، ونعت المعنى عنده أن يكون مواجها للغرض المقصود غير عادل عن الأمر المطلوب(١) .

بل إن ذكر هذين العنصرين قد فتح باب نقاش طويل وحجاج بين فريقين من أصحاب الرأى :

فيذهب أحد الفريقين إلى أن الأدب إنما هو صياغة وتعبير، وأن مجال التفاوت بين الأدباء إنما هو فى الأداء ، لأن الفن قالب .

ومن هؤلاء أبو عثمان الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، الذى يصرح بأن المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العربى والعجمى والبدوى والقروى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن ، وتمييز اللفظ، وسهولته ، وسهولة المخرج

---

(١) نقد الشعر ص١٠

وفى صحة الطبع وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة ، وضرب من الصبغ وجنس من التصوير(١).

ومن الفريق الذى اهتم بالصياغة أبو هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ﻫ إذ يقول: «الكلام يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته وتخير لفظه وإصابة معناه وجودة مطالعه ولين مقاطعه . . فنجد المنظوم مثل المنثور فى سهولة مطلعه ، وجودة مقطعه، وحسن رصفه وتأليفه ، وكمال صوغه وتركيبه، فإذا كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقا ، وبالتحفظ خليقا، وإذا كان الكلام جمع العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة مع السلاسة والنصاعة واشتمل على الرونق والطلاوة، وسلم من حيف التأليف ، وبعد عن سماجة التركيب ، ورد على الفهم الثاقب فقبله ولم يرده ، وعلى السمع المصيب فاستوعبه ولم يمجه ، والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ ، وتقلق من الجاسى البشع .

ثم يذكر رأيه فى المعانى التى لا يتفاضل فيها الأدباء ، ولا تؤثر فى نفوس الذين يستمعون إلى أدبهم أو يقرأونه فيقول : « وليس الشأن فى إيراد المعانى ، لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى ، والقروى والبدوى، وإنما هو فى جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه(٢) .

وهذا الكلام يذكرنا من غير شك بالجاحظ وكلامه الذى أشرنا إليه ولكن كلام أبى هلال هنا فيه كثير من التفصيل والتوضيح للفكرة ، وضرب الأمثلة لتأييد الرأى ، وذلك ما نفتقده فى رأى الجاحظ وكلماته .

---

(١) الحيوان جـ ٢ ص ١٤ المقصود بالقروى ساكن المدينة .

(٢) الصناعتين ٥٨ — جودة مطالعه : أى حسن ابتدائه — الحيف : الجور والظلم الجاسى : الثقيل ، البشع : القبيح .

وكان التفضيل للفكرة وتوضيحها أهم الأسباب التى دعت كثيرا من الباحثين إلى اعتبار أبى هلال صاحب هذا الرأى وزعيمة وأستاذه(١) .

وممن ذهب هذا المذهب ابن خلدون المتوفى سنه ٨٠٨ هـ ، إذا قال فى مقدمته « اعلم أن صناعة الكلام نظما أو نثرا إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى ، وإنما المعانى تبع لها وهى أصل ، والمعانى موجودة عند كل واحد ، وفى طوع كل فكر فلا تحتاج إلى صناعة ، وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلنا ، وهو بمثابة القالب للمعانى ، فكما أن الأوانى التى يغترف بها الماء من البحر آنية الذهب والفضة والصدف(٢) والزجاج والخزف والماء واحد فى نفسه ، وتختلف الجودة فى الأوانى المملوءة بالماء لا باختلاف الماء ، كذلك جودة اللغة وبلاغتها فى الاستعمال ، تخالف طبقات الكلام فى تأليفه باعتبار تطبيقة على المقاصـــد والمعانى واحدة نفسها » .

ويذهب الفريق الآخر إلى أن مدار الأمر ومجال التفاوت إنما هو فى المعانى والأفكار ، وأن الأديب لا يصعب عليه مرام اللفظ ، إذا كان المعنى حاضرا فى ذهنه لأنه سيستدعى إذ ذاك الألفاظ المناسبة له من غير جهد يبذله الأديب فى الانتقاء أو الاختيار .

وممن ذهب هذا المذهب أبو العتاهيه ، وابن الرومى ، والمتنبى وعباس ابن الأحنف .

فقد ذكر أن أبا العتاهية وأبا نواس والحسين الضحاك اجتمعوا يوما فقال أبو نواس ، لينشد كل واحد قصيدة لنفسه فى مراده من غير مدح ولا هجاء ، فانشد أبو العتاهية قصيدة أولها :

---

(١) البيان العربى ١٦٣

(٢) الصدف : الواحدة صدفه : والجمع أصداف ، غلاف اللؤلؤ .

يا إخوتى إن الهوى قاتلى فيسروا الأكفان من عاجل

فسلما له وامتنعا عن الإنشاد بعده، وقالا له: أما مع سهولة هذه الألفاظ، وملاحة هذا القصد، وحسن هذه الإشارات فلا ننشد شيئا وذلك فى بابه من الغزل جيد أيضا لا يفضله غيره(١).

ويرى بعض النقاد أن الإمام عبد القاهر الجرجانى يؤثر المعنى لقوله فى أسرار البلاغة فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا، أو يستجيد نثرا ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول: حلو رشيق وحسن أنيق وعذب سائغ وخلوب رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف، وإلى ظاهر الوضع اللغوى، بل إلى أمر يقع من المرء فى فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده، وأما رجوع الاستحسان إلى اللفظ من غير شرك المعنى فيه، فلا يكاد يعدو نمطا واحدا، وهو أن يكون اللفظ مما يتعارفه الناس فى استعمالهم، ويتداولونه فى زمانهم ولا يكون وحشيا غريبا، أو عاميا سخيفا(٢).

والحق أن الإمام عبد القاهر يرى أن البلاغة فى «النظم»، ويكاد ابن رشيق فى العمدة يرى البلاغة فيهما معا، فيقول: اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه.

وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى، ويذهب إلى أن اللفظ

---

(١) العمده لابن رشيق حـ١ ص١٢٦

(٢) أسرار البلاغه(٩) الزند: والجمع زناد وأزند: العود الأعلى الذى يقتدح به النار - يقال قدح بالزند أى حاول إخراج النار

الهجنة: العيب

أغلى من المعنى ثمنا ، وأعظم قيمة ، وأعز مطلبا ، فإن المعانى موجودة فى طباع الناس يستوى الجاهل فيها والحاذق ، ولكن العمل على جودة اللفظ وحسن السبك ، وصحة التأليف ، ألا ترى لو أن رجلا أراد فى المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبهه فى الجود بالغيث والبحر ، وفى الإقدام بالأسد ، وفى المضاء بالسيف ، وفى العزم بالسيل ، وفى الحسن بالشمس فإن لم يحسن تركيب هذه المعانى فى أحسن حلاها من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة . والعذوبة والطلاوة ، والسهولة والحلاوة لم يكن للمعنى قدرا وبعضهم - وأظنه ابن وكيع - مثل المعنى بالصورة ، واللفظ بالكسوة فإن لم تقابل الصورة الحسناء بما يشاكلها ويليق بها من اللباس ، فقد بخست حقها ، وتضاءلت فى عين مبصرها .

وقال العباس بن حسن العلوى فى صفة بليغ : ألفاظه قوالب لمعانيه وقوافيه معدة لمباينه .

والقالب يكون وعاء كالذى تفرغ فيه الأوانى(١) .

ويعلق الأستاذ أحمد أمين على ما يراه الفريقان بقوله «ونحن نرى أن لكل منهما من الأهمية مالا يقل عن الآخر ، فلا بد فى الكلام البليغ أن يكون ذا لفظ عذب ومعنى حلو ، وليس بصحيح أن المعانى ملقاة فى الطرق فليس تشبيه الممدوح بالغيث أو السيل أو الأسد إلا شيئا تافها مبتذلا ، بجانب المعانى العميقة ، و وكما يفضل الشاعر شاعرا بجودة لفظه ، يفضله بجودة معناه وغزارته ، وليست كل المعانى فى المدح هى التى ذكرت ، وهناك من المعانى مالا يصل إليه إلا الذهن الدقيق والعقل الذكى العميق .

غاية الأمر أن بعض الشعراء يتفوق فى أحد الركنين ، ويقصر فى الآخر ، فقد يكون جيد اللفظ حسن السبك ولكنه خفيف المعانى فتعوض

---

(١) العمدة حـ١ ص١٢٧ — الطلاوة : الحسن والبهجة .

إجادة لفظه عن تقصيره فى المعانى والعكس كذلك فقد يكون جيد المعنى غزيره ، متوسط اللفظ والتركيب ، فيتساهل حينئذ فى الحكم عليها ، لأن إجادته فى أحدهما قد عوضت عن توسطه فى الآخر ، والمثل الأعلى للبليغ من غير شك أن يكون جيداً فيهما معاً ، وربما كان تمجيد أبى هلال العسكرى وابن خلدون للألفاظ دون المعانى هو السبب فى أنهم عدوا أبا العلاء والمتنبى حكيمين لا شاعرين وإنما الشاعر البحترى .

وهذا خطأ فأبو العلاء والمتنبى شاعران ، غاية الأمر أنهما فى المعانى أقوى منهما فى الألفاظ ، وأن البحترى بعكس ذلك جيــد فى اللفظ والتركيب لا فى المعنى ، فكلهم شعراء مختلفوا الميزان ، أما عد البحترى وحده هو الشاعر فأظنه جريا مع النظرية الخاطئة إلى آخرها، ولو اضطررت إلى التفضيل لفضلت أبا العلاء والمتنبى على البحترى لميلهما إلى المعانى ، أكثر من ميلهما إلى الألفاظ(١) .

هذا . والفن الكتابى على ما يرى الأستاذ أحمد حسن الزيات له عنصران: فكرة قوية أصيلة ، وصورة صادقة جميلة .

فإذا فقد أحد هذين العنصرين أو فسد كان الأسلوب أسلوب عالم تجد فية الروح ولا تجد فيه الصورة .

أو أسلوب « مثال » تجد فيه الصورة ولا تجد الروح والعالم أو المثال رجل آخر غير الكاتب أو الشاعر .

العالم همه توضيح الغامض فى الموضوع ، والمثال همه تحقيق الشبه فى الشكل ، أما الكاتب أو الشاعر فهو يبدع الجسم فى أجمل هيئة ويبث فيه الروح على أكمل(٢) حاله .

---

(١) النقد الأدبى ٨٩

(٢) وحى الرساله حـ٤ صـ٤٢

وعلى كل حال ، فقد بحث كل فريق من الفريقين عن مظاهر الجودة في العنصر الذي رأى أنه كل شيء في الأدب ، فأخذت المدرسة الأولى تبحث في الأساليب وتصنيعها ، أو البحث في فنيتها ، وأخـــذت المدرسة الأخرى تبحث عن المعاني ومدى التفاوت بينها ، وأثرى ذلك البحث البلاغي ، وتعددت ألوانه وأشكاله باختلاف مناحي القول في الأدب(١)

---

(١) البيان العربي ٧٥

الفصاحة والبلاغـة

الفصاحة لغة : الظهور والبيان ، يقال : أفصح الأعجمى إذا تكلم من غير لكنة ، وتقول : أفصح إن كنت صادقا ، أى بين وأظهر وفى القرآن الكريم « وأخى هارون هـو أفصح منى لسانا » (١) أى أظهر وأوضح منى قولا .

جاء فى اللسان : فَصُحَ الأعجمى بالضم فصاحة : تكلم بالعربية وفُهِمَ عنه ، وقيل جادت لغته حتى لا يَلْحَن ، وكذلك الصبى يقال : أفصح الصبى فى منطقه إفصاحا : إذا فهمت ما يقول فى أول ما يتكلم ، وأفصح عن الشىء إفصاحا : إذا بينـه وكشفه (٢) والفصاحة اصطلاحا : تختلف باختلاف موصوفها : الكلمة أو الكلام ، أو المتكلم .

فصاحة الكلمة

الكلمة الفصيحة : هى التى خلت من ثلاثة عيوب : تنافر الحروف ، ومخالفة الوضع ، والغرابة .

لأن كل كلمة لهـا مادة هى حروفها ، وصوره هى صيغتها ، ودلالة على معناها .

فعيبها إذا كان فى مادتها فهـــو « التنافر » وإذا كان فى صيغتها فهو

---

(١) القصص ٣٤

(٢) لسان العرب مادة « فصح » المجلد ٢ - ٩٩ ١

« مخالفة الوضع » ، وإذا كان فى دلالتها على معناها فهو « الغرابة » .(١)

وبخلوها من هذه العيوب الثلاثة تسلم مادتها وصيغتها ومعناها من الخلل وتكون فصيحة .

وتنافر الحروف : هو وصف فى الكلمة يوجب ثقلها على اللسان وعسر النطق بها .

وهو نوعان :

تنافر شديد كلفظ « الهُعْخُع » « اسم لنبات ترعاه الأبل » (٢) فى قول أعرابى سئل عن ناقته « تركتها ترعى الهعخع » فهذه الكلمة غير فصيحة لما فيها من تنافر الحروف تنافرا شديدا يشعر به كل ناطق ، وهو خلل واقع فى مادتها .

ومثلها كلمة « الظَّشّ » للموضع الخشن .

والخفيف كلفظ « النقاخ » للماء العذب الصافى ، والبعاق بضم الباء للسحاب الممطر ، « ومستشزرات » بمعنى مرتفعات أو مرفوعات فى قول أمرىء القيس :

---

(١) انظر « حاشيه الدسوقى » ضمن شروح التلخيص جـ ١ ٧٦ ويمكن إجراء ذلك أيضا فى الكلام فعيبه فى مادته تنافر الكلمات وفى صورته أى التأليف العارض على الكلمات ضعف التأليف فى دلالته على معناه التعقيد حاشية الدسوقى جـ ١ — ٧٦

(٢) قيل إن هذه الكلمة لا أصل لها ، وقد سئل الثقات فأنكروا أن يكون هذا الأسم فى كلام العرب ، وقال الفذ منهم : هى شجرة يتداوى بها وبورقها انظر عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ١ - ٧٩

غَـدائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى العُلَى
تَضِلُّ العِقَاصُ فِي مُثَنًّى وَمُرْسَلِ

من معلقة امرىء القيس التى مطلعها :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ
بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقبل هذا البيت :

وَفَرْعٍ يَزِينُ المَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ
أَثِيثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ المُتَعَثْكِلِ (١)

يصف الشاعر امرأة بكثرة الشعر وغزارته، وأنه مرتفع فوق رأسها، وأنه لكثافته مضوع الأجزاء ، فبعضه معقوص ملوى ، وبعضه مثنى ، وبعضه مرسل ، وأن المعقوص منه يغيب فى الذى ثنى وأرسل منه .

« فكلمة » « مستشزرات » غير فصيحة لتنافر حروفها ، وهو خلل واقع فى مادتها .

ولكن . ما الضابط الذى نعول عليه فى معرفة التنافر ؟

يرى الرمانى أن سبب التنافر — كما ذكر الخليل بن أحمد — البعد

---

(١) الفرع : الشعر ، المتن : الظهر ، أثيث : كثير المتعثكل : المتراكم، قنو النخلة : عنقودها ، الغدائر : جمع غديره وهى المسماه عرفا بالضفيرة، والضمير فيها عائد إلى الفرع فى البيت الأول ، مستشزرات : مرتفعات إن كان بكسر الزاى على لفظ اسم الفاعل ، أو مرفوعات إن روى بالفتح على لفظ اسم المفعول ، تضل : تغيب وتختفى العقاص : جمع عقيصه وهى الخصلة من الشعر مجتمعة فوق الرأس، والمثنى: الشعر المفتول، والمرسل ضده

الشديد ، أو القرب الشديد ، بمعنى أن تكون الحروف متباعدة فى المخرج، أو متقاربة فيه .

فلفظ « الهعخع » متنافر ثقيل لتقارب حروفه فى المخرج ، لأن الهاء والعين والخاء خارجة كلها من مخرج واحد وهو الحلق، ولفظ «مستشزر» متنافر أيضا لتقارب حروفه فى المخرج كذلك إذ أن حروفه ، ماعدا الميم خارجة من مخرج واحد وهو اللسان غير أن بعضها خارج من طرفه ، وبعضها من وسطه .

ونحو « ملع » بمعنى أسرع ، متنافر الحروف لتباعد حروفه فى المخرج إذ أن الميم خارجة من الشفتين والعين من أقصى الحلق، ويعلل ذلك بأنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة « الطفر » وإذا قرب القرب الشديد ، كان بمنزلة « مشى المقيد » لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه ، وكلاهما صعب على اللسان ، والسهولة من ذلك فى الاعتدال ، ولذلك وقع فى الكلام الإدغام والإبدال(١) .

ورد هذا الرأى بأن الضابط المذكور غير مطرد ، لأننا لانجد تنافرا فى قولنا « ذقت بفمى » مع تقارب الباء والفاء والميم فى المخرج .

كما لا نجده فى مثل « علم ،وملح، مع تباعد العين والميم ، أو الميم والحاء فى المخرج وكما أنه قد وقع التقارب فى القرآن الكريم فى قوله تعالى « ألم أعهد إليكم يابنى آدم »(٢) .

فالهزة والعين والهاء كلها متقاربة ، ومع ذلك فهى غير متنافرة ، ولا يستطيع أحد أن يقول إنها غير فصيحة ، والضابط المعول عليه هو

---

(١) ثلاثة رسائل فى إعجاز القرآن ٩٦ .

(٢) يس ٦٠

« الذوق السليم » فما عده الذوق ثقيلا متعسر النطق فهو متنافر ، وإلا فلا، فهو العمدة فى معرفة حسن الكلمات وسلامتها .

هذا ويناقش ابن سنان فى كتابه « سر الفصاحة » الرمانى فى دعواه ويعترض عليه ، ويرى أن سر التنافر يرجع إلى قرب المخارج لا إلى بعدها .

يقول ابن سنان : ولا أرى التنافر فى بعد مابين مخارج الحروف ، وإنما هو فى القرب ، ويدل على صحة ذلك الاعتبار ، فإن هذه الكلمة « ألم » غير متنافرة ، وهى مع ذلك مبنية من حروف متباعدة المخارج ، لأن الهمزة من أقصى الحلق ، والميم من الشفتين . واللام متوسطة بينهما ، وعلى مذهبه كان يجب أن يكون هذا التأليف متنافرا، لأنه على غاية مايمكن من البعد وكذلك أم ، وأو ، لأن فيهما الميم والواو من أبعد الحروف من الهمزة ..ومتى اعتبرت جميع الأمثلة، لم تر للبعد الشديد وجها فى التنافر على ماذكره ، فأما الإدغام والإبدال فشاهدان على أن التنافر فى قرب المخارج دون بعدها، لأنهما لا يكادان يردان فى الكلام إلا فرارا من تقارب الحروف ، وهذا الذى يجب عندى اعتماده، لأن التتبع والتأمل قاضيان بصحته وإذا ثبت ماذكرناه ، فقد بان أن تكرر الحروف والكلام يذهب بشطر من الفصاحة (١) .

والحق — كما أشرنا — أن الضابط المعول عليه فى معرفة التنافر هو الذوق السليم .

يقول الشيخ الدسوقى فى حاشيته على شرح السعد: إن الضابط المعول عليه فى ضبط تنافر الحروف الذوق . وهو قوة يدرك بها لطائف الكلام ووجوه تحسينه ، فكل ماعده الذوق ثقيلا متعسر النطق به كان ثقيلا ، ومالا فلا خلافا لمن قال : الضابط المعول عليه فى ضبط التنافر بعد المخارج،

---

(١) سر الفصاحة ٩١ .

ولمن قال قربها ، لأن كلا منهما لا يطرد ، لأنا نجد عدم التنافر مع قرب المخرج «كالجيش والشجى» (١) ومع بعده كعلم بخلاف ملع ، أى أسرع ، فقرب المخارج وبعدها كل منهما غير مطرد ، فلا يكون واحد منهما ضابطا معولا عليه ، ولا يقال إن عدم الثقل فى علم وإن كانت المخارج فيه متباعدة بخلاف ملع ، أن الإخـراج من الحلق إلى الشفة أيسر من الإدخال من الشفة إلى الحلق ، لأنا نقول : هـذا لا يتم لما نجده من حسن « حلم وملح وغلب وبلغ » (٢) .

ومخالفة الوضع : هو أن تكون الكلمة مخالفة لما ثبت عن واضع اللغة ، وذلك كلفظ « ضننوا » فى قول الشاعر :

مَهْلًا أَعَاذِلَ قَدْ جَرَّبْتِ مِنْ خُلُقِي
أَنِّي أَجُـودُ لِأَقْـوَامٍ وَإِنْ ضَنِنُوا

يخاطب الشاعر من لامته على إحسانه إلى من بخلوا عليه ، ويقول لها : هونى على نفسك ، وخففى من لومك ، فأنت تعرفين ، أنى أقابل السيئة بالحسنة ، لأنى إنما أصنع المعروف ، لا لشىء وراءه .

فلفظ « ضننوا » غير فصيح لأنه مخالف لما ثبت عن الواضع ، إذ الثابت والوارد ن الواضع ، « وإن ضنوا » بالإ غام .

ومثله لفظ « الأجلل » فى قول الفضل بن قـدامة .

الحـمـدُ للهِ العَـلِيِّ الأجـلـلِ الواهِبِ الفضلِ الـكريمِ المجْزِلِ

---

(١) الشجى : الحزين والمشغول البال
(٢) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص حـ١ صـ ٨٠ .

فإن القياس الصرفى « الأجل » بالإدغام وهو ماثبت عن الواضع .

وكذلك لفظ « بوقات » فى قول المتنبى بمدح سيف الدولة :

فَإِنْ يَكُ بَعْضُ النَاسِ سَيْفاً لِدَوْلَةٍ
فَفِي النَّاسِ بُوقَاتٌ لَهَا وطُبُولُ(١)

يقول : إذا كنت سيفا لدولتك له أثره وخطره ، فغيرك من الملوك بمثابة البوق والطبل لا أثر له ، ولاغناء فيه .

فلفظ « بوقات » غير فصيح لمخالفته لما ثبت عن الواضع ، إذ الثابت جمعه جمع تكسير فيقال : أبواق » ، ومثل هذا خلل فى صيغة الكلمة مخل بفصاحته هذا . وقد أوثر التعبير « بمخالفة الوضع » بدلا من التعبير بمخالفة القياس لأن العبرة بماثبت عن الواضع ، فقد يوافق القياس الصرفى . وقد يخالف نحو أبى يأبى « بفتح الباء فى المضارع » والقياس كسرها فيه ، لأن فعل « بفتح العين » لا يأتى مضارعه على يفعل « بالفتح » إلا إذا كانت عين ماضيه أولامه حرف حلق نحو سأل ونفع ، فمجىء المضارع بالفتح على خلاف القياس ، إلا أن الفتح ثبت عن الواضع .

ونحو « آل وماء » وذلك لأن أصل « آل » أهل ، وأصل « ماء » موه ، أبدلت الهاء فيهما همزة ، وإبدال الهمزة من الهاء ، وإن كان على خلاف القياس إلا أنه ثبت عن الواضع .

ونحو « عَوِرَ يَعْوَر » فالقياس فيهما عار يعار ، بقلب الواو ألفا لتحركها وانفتاح ماقبلها ، كزال يزال ، فتصحيح الواو خلاف القياس إلا أنه ثبت أيضا عن الواضع(١) .

---

(١) المراد ببعض الناس : سيف الدولة — عاذل : منادى : مرخم يريد : أعاذلة .

(١) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ٨٩ .

والغرابة : هى أن تكون الكلمة ، وحشية ، أى غير ظاهرة الدلالة على المعنى الموضوعة له الكلمة ، وذلك لسببين :

الأول : عدم تداولها فى لغة العرب الخلص . فيحتاج فى معرفته إلى البحث والتنقيب فى كتب اللغة ومعاجمها .

فتارة يعثر على معناها بعد البحث كلفظتى «تكأكأتم وافرنقعوا» من قول عيس النحوى ، وقد سقط عن دابته ، فاجتمع الناس حوله «مالكم تكأكأتم على تكأكؤكم على ذى جنة افرنقعوا عنى» فمعنى «تكأكأتم» اجتمعتم ، ومعنى «افرنقعوا» انصرفوا ، أى مالكم اجتمعتم على كاجتماعكم على ذى جنون ، تنحوا عنى .

ومن هذا النوع أيضا «رخاخ» فى قولهم نحن فى رخاخ من العيش أى فى سعة ورغد ، و «مستحنفرة» فى قول امرىء القيس : «رب طعنة مستحنفرة» ، أى متسعة .

وتارة أخرى لا يعثر على معناها كلفظ «جحلنجع» من قول أعرابى «من طمحة صبيرها جحلنجع»(١).

والثانى : عدم استعمال الكلمة عند العرب الخلص بالمعنى الذى أريد منها ؛ فيحتاج فى معرفتها إلى تخريج على وجه بعيد كلفظ «مسرجا» فى قول رؤبة ابن العجاج .

أَيَّامَ أَبْدَتْ وَاضِحًا مُفَلَّجَا ... أَغَــرَّ بَرَّاقًا وَطَرْفًا أَدْعَجَا

---

(١) الطمحة : النظرة ، والصبير : السحاب .

وَمُقْــلَةً وَحَاجِباً مُزَجَّجا   وَفَاحِماً وَمَرْسِناً مُسَرَّجاً(١)

والشاهد فيه : الغرابة فى « مسرجا » للاختلاف فى تخريجه .

فإن « مسرجا » اسم مفعول مشتق ، وكل مشتق لابد له من أصل يشتق منه ، غير أنه فتش عن مصدر هذا المشتق فلم يعثر عليه فى معاجم اللغة وإنما وجد من هذه المادة « سريجى وسراج » .

وكان لابد من حمل هذه الكلمة على وجه تسلم به من الخطأ لوقوعها من عربى عارف باللغة ، ولو كان هذا الوجه بعيدا ، ولما لم يعلم ما أراده الشاعر بقوله « مسرجا » اختلف فى تخريجه .

فقيل : هو من قولهم : سيوف سريجية أى منسوب إليها من نسبة المشبه للمشبه به ، يريد أنه فى الدقة والاستواء كالسيف السريجى .

وقيل مأخوذ من السراج أى منسوب إليه نسبة تشبيهية أيضا ، أى أن أنفها يشبه السراج فى الرونق والضياء بيد أنه على كلا القولين غير ظاهر الدلالة على المعنى المراد ، لأن مادة « فعل » المضعف العين إنما استعملت عند العرب فى مجرد النسبة . يقال : كرمته أى نسبته للكرم ، أما النسبة التشبيهية فلم يرد استعمال اللفظ منها ، فأخذها منه بعيد .

---

(١) الفلج : بالتحريك تباعد ما بين الأسنان ، الأغر : الأبيض ، الدعج بالتحريك اتساع العين وحسنها ، المقلة : بياض العين مع سوادها ــ التزجيج : التدقيق فاحما : صفة لمحذوف أى شعر أسود كالفحم فهو من نسبة المشبه للمشبه به يريد : أن لهذه المرأة مقلة سوداء ، وحاجبا مدققا مقوسا ، وشعراً أسود ، وأنفا كالسيف السريجى فى دقته واستوائه ، أو كالسراج فى بريقه وضيائه ــ انظر معاهد التنصيص جـ١ صـ١٥ .

وقيل إنه من « فعل » بتشديد العين بمعنى صيرورة فاعله كأصله مثل : قوس الرجل ، أى صار كالقوس ، فسرج أى صار كالسراج ، أو كالسريجى ورد هذا بأن سرج على هذا لازم ، فلا يصاغ منه اسم مفعول .

وقيل : هو اسم مفعول من سرج الله وجهه أى نوره وبهجه ، وهذا القول وإن لم يكن غريبا من حيث عدم احتياجه لتخريج بعيد ، لكنه بعيد من حيث إنه يحتاج إلى بحث وتنقيب فى معاجم اللغة .

ومن ثم فالغرابة بنوعيها تؤدى إلى خلل فى المعنى ، ينبغى للفصيح تجنبه .

هذا والعبرة بعدم ظهور المعنى ، وعدم مأنوسية الاستعمال بالنسبة للعرب العرباء سكان البادية ، لا بالنسبة للمولدين ، وإلا خرج كثير من قصائد العرب بل جلها عن الفصاحة ، فإنها الآن لغلبة الجهل باللغة على أكثر علماء هذه الأزمان ، فضلا عمن عداهم لا يعرفون مفرداتها فضلا عن مركباتها(١) .

هذا ويرى بعض البلاغيين أن فصاحة الكلمة تكون بخلوها مما ذكر « تنافر الحروف ، ومخالفة الوضع ، والغرابة » ومن الكراهة فى السمع ، بأن تكون اللفظة بحيث يمجها السمع ، ويبرأ من سماعها ، كما يبرأ من سماع الأصوات المنكرة ، كلفظ « الجرشى » فى قول المتنبى يمدح سيف الدولة :

مُبَارَكُ الاسمِ أغَرُّ اللقبْ ... كَرِيمُ الجِرِشَّى شَرِيفُ النَّسَبْ(٢)

واعترض على هذا الرأى ، لأن الكراهة فى السمع لا سبب لها إلا الغرابة ، وهذا يغنى عن اشتراط الخلوص من الكراهة فى السمع(٣) .

---

(١) حاشية الدسوقى ٨٣ .

(٢) الجرشى : النفس ، والأغر من الخيل : الأبيض الجبهة ثم استعير لكل واضح معروف .

(٣) انظر شروح التلخيص جـ١ ص ٩٠ ، ٩١ .

فصاحة الكلام

الكلام الفصيح هو الذى يبرأ من ثلاثة عيوب هى : تنافر الكلمات ، وضعف التأليف ، والتعقيد بنوعيه ، مع فصاحة مفرداته .

والمقصود بتنافر الكلمات : أن تكون الكلمات مجتمعة ثقيلة على اللسان يتعسر النطق بها ، وإن كانت كل كلمة على حدة لا ثقل فيها .

والتنافر نوعان : شديد وخفيف .

فالتنافر الشديد ما تكون الكلمات فيه مجتمعة متناهية فى الثقل على اللسان ويتعسر النطق بها متتابعة كقول الشاعر :

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرٍ ... وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ (١)

فإن كلمات الشطر الثانى متعادية ينفر بعضها من بعض أشد النفور ، حتى قيل إن هذا البيت لا يمكن إنشاده ثلاث مرات متواليه إلا ويغلط المنشد فيه لأن نفس اجتماع كلماته . وقرب مخارج حروفها ، يحدثان ثقلا ظاهرا ، مع أن كل كلمة منه لو أخذت وحدها ، ما كانت مستكرهة ولا ثقيلة .

قال الجاحظ : ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر ، وإن كانت مجموعة فى بيت شعر ، لم يستطع المنشد إنشادها ، إلا ببعض الاستكراه ، وذكر البيت ، ثم استطرد ، ولما رأى من لا علم له أن أحداً لا يستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات فى نسق واحد ، فلا يتتعتع ، ولا يتلجلج ،

---

(١) حرب اسم رجل ، القفر : الخالى من الماء والكلأ ، و « قفر » بالرفع نعت مقطوع .

وقيل لهم إن ذلك إنما اعتراه إذ كان من أشعار الجن صدقوا بذلك(١) .

وقول الشاعر يصف فرسا بالخفة والسرعة :

أَزَجُّ زَلُوجٌ هَزْرَفِيٌّ زُفَازِفٌ
هِزَفٌّ يَبُذُّ النَّاجِيَاتِ الصَّوَافِنَا (٢)

ففيه من التنافر ما يجعل اللسان يتعثر عند النطق به .

وقول المتنبي :

وَمِنْ جَاهِلٍ بِي وَهُوَ يَجْهَلُ جَهْلَهُ
وَيَجْهَلُ عِلْمِي أَنَّهُ بِيَ جَاهِلُ (٢)

فقد كرر « الجهل » خمس مرات ، وفي ذلك ثقل على اللسان شديد يدركه صاحب الذوق السليم .

---

(١) البيان والتبيين ج١ ص٦٥

(٢) أزج : بفتح الهمزة والزاي وتشديد الجيم ، وزلوج : على زنة صبور وهزرفي : بفتح الهاء وسكون الزاي وفتح الراء وكسر الفاء وتشديد الياء وزفازف : على صيغة منتهى الجموع ، وكلها أوصاف للفرس بالخفة والسرعة وهزف : بكسر ففتح ففاء مشددة معناه طويل الظهر ، ويبذ : يسبق والناجيات الصوافن : الخيل القوية .

(٢) علمي : مفعول يجهل ، وقوله : « أنه » مفعول علمي ، أي يجهل معرفتي بجهله بي ، والمعنى : ومن رجل آخر لا يعرفني ، ولا يعرف جهله ، فهاتان جهالتان ويجهل أني أعلم أنه جاهل بي ، وهو من قول الحكيم : الذي لا يعلم بعلته لا يتوصل إلى برئها — ديوان المتنبي بشرح العكبري

والتنافر الخفيف : ما كان دون ذلك كقول أبي تمام من قصيدة يمدح بها أبا الغيث موسى بن ابراهيم ويعتذر إليه :

كَرِيمٌ متى أمدحهُ أمدحهُ والورَى
مَعِى وإذا مالُمْتُهُ لمتُـهُ وَحْدِى(١)

فقد ذكر الصاحب بن عباد أنه أنشد هذه القصيدة بحضرة ابن العميد ، فلما بلغ هذا البيت قال له ابن العميد : هل تعرف فى هذا البيت عيبا ؟ قال : بلى ، قابل المدح باللوم ، فلم يوف التطبيق حقه ، إذ حق المدح أن يقابل بالذم ، فقال غير هذا أردت فقال : لا أدرى غير ذلك . فقال الأستاذ : هذا التكرير فى « أمدحه أمدحه » مع الجمع بين الحاء والهاء ، وهما من حروف الحلق ، خارج عن حد الاعتدال ، نافر كل النفار .

فأشاد الصاحب بذوقه ونقده ، وقال له : هذا مالا يدركه ولا يعلمه إلا من انقادت وجوه العلم له .

والتنافر فى البيت فى تكرار « أمدحه أمدحه » مع بين الحاء والهاء وليس فى مجرد الجمع بين الحاء والهاء ثقل يؤدى إلى التنافر ، ويخل بالفصاحة فقد جاء ذلك فى القرآن الكريم قال تعالى « فسبحه ليلا طويلا »(٢) .

قال ابن يعقوب المغربى : لا شك أن تكرار « أمدحه » أوجب ثقلا

---

(١) الورى : الخلق يريد أبو تمام : هو كريم فى خلقه ومعروفه إذا ما مدحته وافقنى الناس على مدحه فيمدحونه ، وإذا ما أردت لومه وقفت وحدى لا يشاركنى أحد .

(٢) الإنسان ٢٦

من جهة تكرار الحاء والهاء ، وأما نفس اجتماع الحاء والهاء بدون تكرار فلا يوجب ثقلا يخل بالفصاحة ، فإنه قد وجد فى التنزيل المنزه عما يخل بالفصاحة(١) .

والمراد بضعف التأليف : أن يكون الكلام خارجا عن قواعد النحو المشهوره كقول المتنبي يمدح سيف الدولة ويشكره على هدية بعثها إليه :

لَيْسَ إِلَّاكَ يَا عَلِيُّ هُمَامُ
سَيْفُهُ دُونَ عِرْضِهِ مَسْلُولُ

يريد : أنت الشجاع فليس أحد من الملوك يقي عرضه بسيفه إلا أنت ، ملك عالى الهمة ، رفيع القدر ، سيفه مسلول دون عرضه ، فهو يغلب من غالبه ولا يفوته من طلبه .

وكما ترى ، فقد وصل الضمير بإلا ، وكان الأصل أن يقول : إلا إياك وقول الشاعر :

جَزَى بَنُوهُ أَبَا الغِيلَانِ عَنْ كِبَرٍ
وَحُسْنِ فِعْلٍ كَمَا يُجْزَى سِنِمَّارُ(١)

يدعو الشاعر على أبي الغيلان أن يجازيه أولاده مع كبر سنه ، وحسن صنيعه معهم شر جزاء كما وقع لسنمار .

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص حـ١ ص١٠٠

(٢) سنمار اسم رجل بنى للنعمان بن امرى القيس قصرا بالكوفه ، وقد أتقن صنعه بحذقه ومهارته ، ولما أتم بناءه وزخرفه ، ألقاه النعمان من أعلاه ، لئلا يبنى لأحد قصرا مثله ، فمات لساعته ، فضرب به المثل لكل من يجازى على الخير بالشر .

فقد أعاد الشاعر الضمير فى « بنوه » على « أبا الغيلان » وهو متأخر لفظاً ورتبة ، لأنه مفعول به ورتبته التأخير .

وقول حسان بن ثابت يرثى مطعم بن عدي .

وَلَوْ أَنَّ مَجداً أَخْلَدَ الدهرَ وَاحِداً
مِنَ النَّاسِ أَبْقَى مَجْدُهُ الدهرَ مُطْعِماً(١)

يريد حسان : لو أن المجد يخلد صاحبه لكان مطعم أولى الناس بالخلود لأنه بلغ من المجد والسيادة مالم يبلغه أحد غيره .

وكما ترى فقد أعاد الشاعر الضمير فى « مجده » على مطعم ، وهو متأخر لفظاً ورتبة لأنه مفعول به ورتبته التأخير ، وفى هذا خروج بالكلام عن المشهور من قواعد النحو .

هذا ، ومن ضعف التأليف نصب المضارع بدون ناصب كقولهم : تسمع بالمعيدى خير من أن تراه .

وقول الشاعر :

قَبِيحٌ مِنَ الإنسانِ يَنْسَى عُيُوبَه
ويذكرَ عيباً فِى أَخِيه قد اخْتَفَى(٢)

فقد نصب الشاعر المضارع فى شطرى البيت بدون ناصب ، على تقدير

---

(١) حسان بن ثابت شاعر الرسول عليه الصلاة والسلام عاش مائة وعشرين سنه نصفها فى الجاهلية ونصفها فى الإسلام .

(٢) يريد أنه لا يجمل بالعاقل أن يقعد للناس كل مرصد وأن يتلمس عيوبهم ، ويغمض الطرف عن عيوبه ، فعليه أولا أن يقوم نفسه ويصلح أمرها .

أن ينسى وأن يذكر ، وهذا خروج على القواعد المشهورة يخل بفصاحة الكلام .

والتعقيد : أن يكون الكلام خفى الدلالة على المعنى المراد لخلل واقع فيه .

وهو نوعان : لفظى ومعنوى .

فالتعقيد اللفظى : أن يكون الكلام خفى الدلالة على المعنى المراد لخلل واقع فى نظمه وتركيبه ، بحيث لايكون ترتيب الألفاظ على وفق ترتيب المعانى بسبب تقديم أو تأخير ، أو نحو ذلك مما يترتب عليه صعوبة فهم المعنى المراد .

والتعقيد اللفظى قد يكون شديداً كقول الشاعر :

فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجَتِهَا
كَأَنَّ قفراً رُسُومَهَا قَلَمَا

يصف الشاعر داراً بالية عفى عليها الزمان، بعد أن كانت عامرة بالبهجة والسرور .

وأصل التركيب «فأصبحت هذه الديار بعد بهجتها قفراً كأن قلماً خط رسومها ، ففصل الشاعر بين المضاف وهو « بعد » والمضاف إليه وهو « بهجتها » بالفعل الذى هو « خط » ، وفصل بين « كأن وأسمها الذى هو قوله «خط» وفصل بينه وبين معموله وهو «رسومها» بأجنبى ، وفصل بين «أصبح وخبرها» وهو قوله «قفراً» بأجنبى .

ففى البيت كما ترى تعقيد لفظى ، بسبب تقديم ماحقه التأخير ، وتأخير ماحقه التقديم ، وللفصل بين ماحقه الاتصال .

ومن ثم فقد تعقد الكلام وخفيت دلالته على المعنى المراد .

وقول الفرزدق : يمدح ابراهيم بن هشام بن اسماعيل المخزومى ، خال هشام بن عبد الملك بن مروان :

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا
أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ

يريد : ليس مثل الممدوح فى النـــاس حى يقاربه فى الفضائل وكرم الشمائل إلا مملكا ، أبو أم ذلك الملك أبو للممدوح ؛ أى لا يحاكيه ولا يشبهه فى الفضائل أحد إلا ابن أخته «هشام» .

فقد فصل الشاعر بين المبتدأ والخـــبر «أبو أمه أبوه» بالأجنبى الذى هو «حى» وبين الموصوف والصفه «حى يقاربه» بالأجنبي الذى هو أبوه وقدم المستثنى «مملكا» على المستثنى منه وهو «حى» وفصل بين البدل وهو حى والمبدل منه وهو «مثله» مما جعل التعقيد فى أقبح صوره ، ومن ثم فقد ذم التعقيد فى البيت .

يقول المبرد : يعنى بالمملك هشاما ، أبو أم ذلك المملك أبو هذا الممدوح ولو كان هذا الكلام على وجهه لكان قبيحاً وكان يكون إذا وضع الكلام فى موضعه أن يقول : وما مثله فى الناس حى يقاربه إلا مملك ، أبو أم هذا الملك أبو هذا الممدوح ، فدل على أنه خاله بهذا اللفظ البعيد ، وهجنه بما أوقع فيه من التقديم والتأخير(١) .

ويقول الإمام عبد القاهر معلقاً على هذا البيت «وما كان من الكلام معقداً موضوعاً عـــلى التأويلات المتكافة فليس ذلك بكثرة وزيادة

---

(١) الكامل للمبرد حـ ١ ص ٢٨

فى الإعراب ، بل هو بأن يكون نقصاً له ونقضاً أولى ، لأن الإعراب هو أن يعرب المتكلم عما فى نفسه ويبينه ، ويوضح الغرض ، ويكشف اللبس، والواضع كلامة على المجازفة فى التقديم والتأخير زائل عن الإعراب، زائــغ عن الصواب ، متعرض للتلبيس والتعمية ، فكيف يكون ذلك كثرة فى الإعراب ؟ إنما هو كثرة عناء على من رام أن يرده إلى الإعراب(١) .

ويذم الإمام التعقيد إذ يقول : وأما التعقيد فإنما كان مذموماً ، لأجل أن اللفظ لم يرتب الترتيب الذى بمثله تحصل الدلالة على الغرض ، حتى احتاج السامع أن يطلب المعنى بالحيلة ، ويسعى إليه من غير الطريق .. . وإنما ذم هذا الجنس لأنه أحوجك إلى فكر زائد على المقدار الذى يجب فى مثله ، وكدك بسوء الدلالة ، وأودع المعنى لك فى قالب غير مستو ولا مملس ، بل خشن مضرس ، حتى إذا رمت إخراجه منه عسر عليك ، وإذ خرج خرج مشوه الصورة ناقص الحسن(٢) .

وقد يكون التعقيد خفيفا كقول الفرزدق يصف ذئباً :

تَعَــالَ فإنْ عاهدتنى لاتخوننى
نكنْ مثل مَنْ - ياذِئبُ - يَصْطَحِبَانِ

يريد الفرزدق : نكن ياذئب مثل من يصطحبان، ففصل بين الموصول وصلته بأجنبى هو قوله : « ياذئب » فتعقد الكلام تعقيداً خفيفاً .

وقول المتنبى فى مدح القاضى أبى الفضل أحمــد بن عبد الله الأنطاكى :

---

(١) أسرار البلاغة ٨١
(٢) أسرار البلاغة ١٦٢

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم
شيم على الحسب الأغر دلائل(١)

يريد المتنبي : أنهم اتسموا بخلال كريمة ، دالة على عراقة أصولهم ، وكرم معدنهم وقد نالها شرف انتسابها إليهم. واعتزت بهم لتحليهم بأسمى صفات الكمال . وأنبل الخلال .

وأصل التركيب : جفخت بهم شيم دلائل على الحسب الأغر، وهم لا يجفخون بها ، ففصل بين الفعل وفاعله وهما «جفخت شيم» بالجملة الحالية وهي قوله : « وهم لا يجفخون بها » كما فصل بين الصفة موصوفها وهما : « شيم دلائل » بالجار والمجرور ، وبهذه الفواصل تعقد الكلام ، فخفيت دلالته على معناه .

والتعقيد المعنوى: أن يكون الكلام خفي الدلالة على المعنى المراد لخلل واقع في معناه، بسبب انتقال الذهن من المعنى الأول المفهوم من اللفظ لغة إلى المعنى الثاني المقصود ، كقول العباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا
وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

يطلب ابن الأحنف البعد عن أحبائه غير مبال بآلام الفراق، ليسعد بعد ذلك بوصل دائم وفرح لا يزول ، وبهجة لا تنقطع .

بيد أنه لم يوفق فى أداء المعنى الذى أراده، فقد أراد أن يكنى عما ينشده بكنايتين ، أصاب فى إحداهما ، وأخطأ فى الأخرى .

---

(١) الجفخ : الفخر ، والشيم : جمع شيمة : وهى الخليقة والأغر : الأبيض الواضح .

فقد عبر أولا بسكب الدموع عما يوجبه فراق الأحبة من الحزن. فأصاب وأحسن، لسرعة فهم الحزن من سكب الدموع، لأن البكاء عادة يكون أمارة الحزن كما يكون الضحك أمارة السرور.

ثم عبر ثانياً «بجمود العين» كناية عن الفرح والسرور بلقائه مع أحبائه ولكن الصواب قد جانبه لأن جمود العين جفافها من الدمع وبخلها به عند الحاجة إليه، وهو الحزن على فراق الأحبة، يؤيد ذلك قول الخنساء ترثي أخاها صخراً:

أَعَيْنَيَّ جُـودا ولا تَجْمُـدا
ألا تبكيانِ لِصَخْرِ النَّـدَى

تريد الخنساء: أفيضا بالدمع، ولا تبخلا به، كما يدل على ذلك أيضاً قولهم «سنة جماد» أي بخيلة بالقطر(١) و«ناقة جماد» أي لا تجود بالدر(٢).

ومن ثم لا يصح أن يقال في مقام الدعاء للمخاطب بالسرور «لا زالت عينك جامدة» على معنى لا أبكى الله عينك، إذ هو دعاء عليه بالحزن لا بالسرور.

ويؤيد ذلك أيضاً قول أبي عطاء يرثي ابن هبيرة، وقد قتل في معركة يوم «واسط»:

ألا إنَّ عَيْناً لم تَجُدْ يومَ وَاسِطٍ
عليـكَ بِجَارِي دمعها لَجَمُـودُ

أي لبخيلة بالدمع.

---

(١) جمع قطار: المطر.
(٢) الدر: اللبن.

ويقول الشيخ الدسوقي: ولهذا لا يصح عندهم في الدعاء للمخاطب أن يقال لا زالت عينك جامدة ، لأنه دعاء عليه بالحزن ، فالمعنى الذي أراده الشاعر لا يفهم من العبارة بسرعة ، وحينئذ فيكون الكلام معقداً، ومن المعلوم أن الكلام المعقد يعد صاحبه مخطئاً(١).

وهذا ، وقد زاد بعض العلماء عيبا رابعاً يخل بفصاحة الكلام ، وهو كثرة التكرار وتتابع الإضافات كقول المتنبي يصف فرسه:

وتُسْعِدُني فِي غَمْرَةٍ بعدَ غَمْرَةٍ
سَبُوحٌ لهـا منهـا عليهـا شَوَاهِدُ(٢)

يصف الشاعر فرسه بالسرعة ، وأنها منجاة له من الشدائد والمحن بخفة حركتها ، وأن دلائل الكرم بادية عليها ، وشاهدة على أصالتها .

وفي الشطر الثاني نلاحظ كثرة التكرار في قوله « لها منها عليها ».

وقول ابن بابك :

حَمامةَ جَرْعَى حَوْمَةِ الجندلِ اسْجَعي
فأنتِ بِمَرْأى مِنْ سُعادَ وَمَسْمَعِ(٣)

يريد الشاعر : أيتها الحمامة التي تعيش أو تحلق في هذا المكان، غني واصدحي ، فأنت بحيث تراك سعاد وتسمع صوتك .

---

(١) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص جـ ١ ص ١١٠

(٢) الغمرة : الشدة ، والسبوح : السريعة ، والشواهد : العلامات.

(٣) الجرعاء : تأنيث الأجرع قصرها للضرورة ، وهي أرض ذات رمل لا تنبت شيئاً، والحومة معظم الشيء ، والجندل : أرض ذات حجارة، والسجع : هدير الحمام.

ونلاحظ أن الشاعر ، قد أضاف كلمة « حمامة » إلى « جرعا » المضافة إلى « حومة » المضافة إلى « الجندل » .

والحق أن كثرة التكرار، وتتابع الإضافات ، لا يخل بفصاحة الكلام إلا إذا ثقلت به الألفاظ على اللسان ، وحينئذ يدخل فى باب التنافر ، أما إذا سلم من الإستكراه ، ولم يؤد إلى الثقل فهو حسن وجميل .

وقد ورد فى القرآن الكريم التكرار فى قوله تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها »(١) ، كما ورد تتابع الإضافات فى قوله تعالى : « ذكر رحمة ربك »(٢) وهما فى غاية الحسن والجمال .

يقول الشيخ الدسوقى : إنا لا نسلم ذلك الإطلاق، بل الحق التفصيل وهو إن حصل للفظ ثقل بسبب ماذكر من الأمرين كانا مخلين بالفصاحة ، لكن الإحتراز عنهما حصل بالإحتراز عن التنافر ، لما تقدم أن تنافر الكلمات عبارة عن كونها ثقيلة على اللسان عند أجتماعها ، وإن كانت فصيحة ، وإن لم يحصل للفظ ثقل بسببهما فلا يخلان بالفصاحة ، وقد قال النبى ﷺ الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق ابن ابراهيم(٣) .

فصاحة المتكلم

إذا كان لدى المتكلم القدرة على أختيار الألفاظ الفصيحة ، وصوغها فى أسلوب ، يخلب اللب ، ويملك الفؤاد ، ويسترعى السمع ، وأن يعبر تعبيراً فصيحاً عما يجيش فى صدره ، ويدور فى خلده ، فإنه يكون فصيحاً .

---

(١) الشمس ٧ ، ٨ (٢) مريم ٢

(٣) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ح ١ ص ١١٥ ، ١١٦

وإن لم ينطق متى كانت عنده القـــدرة على سبك الكلام وجودة العبارات .

ومن ثم ففصاحة المتكلم عبارة عن « ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح »(١) .

وهذه الملكة تكتسب بمعايشه الأساليب الأدبية الرفيعة وحفظ الكثير من الشعر والنثر حفظاً واعيـــاً ، يستوعب معانيه ، ويستغرق فى آفاقه ، ويذهب فى أوديته ، وهذا الوعى وهذ الإستغراق هو الوسيلة لتربية النفس الشاعره، التى تشعر شعوراً صحيحاً وصادقاً ، وتتأمل تأملا مستبطنا ، وتتلقى الأشياء والتجارب والأحداث تلقياً واعياً.فإذا وصفت ما تجد جاء وصفها قوياً واضحاً(٢) .

(١) الإيضاح ٧

(٢) خصائص التراكيب ٣٨

البـــلاغة

البلاغة لغة : تنبىء عن الوصول والانتهـــاء ، يقال : بلغت الغاية إذا انتهيت إليها ، جاء فى اللسان(١) بلغ الشىء يبلغ بلوغا : وصل وانتهى، وبلغت المكان بلوغا : وصلت .

واصطلاحا : تختلف باختلاف موصوفها ، وهو أحد اثنين : الكلام والمتكلم . يقال : هذا كلام بليغ ، وهذا متكلم بليغ ، ولا توصف بها الكلمة المفردة ، فلا يقال : « كلمة بليغة » لعدم ورود السماع بذلك ، إلا إذا أريد بها القصيدة أو المقال أو الخطبة على سبيل التجوز ، فتوصف حينئذ بالبلاغة ، فيقال : كلمة بليغة والمعنى قصيدة بليغة ، أو خطبة بليغة ، أو مقال بليغ .

والمقصود ببلاغة الكلام : مطابقته لمقتضى الحال ، مع سلامته من العيوب المخلة بفصاحته وفصاحة مفرداته .

وكما ترى ، فإن مقتضيات الأحوال تختلف باختلاف تلك الأحوال . فإذا كانت الحال إنكاراً من المخاطب ، كان المقتضى كلاما مؤكدا ، لأن هذا هو المناسب لحال المنكر ، وإذا كانت الحال خلو الذهن ، وكان المقتضى كلاماً خالياً من التأكيد لأن هذا هو الموافق لحال خالى الذهن ، وإذا كانت الحال ذكاء فى المخاطب ، كان المقتضى كلاما موجزا ، ذا عبارات لطيفه ، ومعان دقيقة . وإشارات خفية وإذا كانت الحال وعظا كان المقتضى الإطناب فى الكلام ، وأن يكون ذا عبارات صريحة واضحة ليبلغ أعماق قلوب السامعين ، وقد أحسن الرمانى إذ يقول : « إنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ »(٢) .

---

(١) لسان العرب مادة « بلغ » .

(٢) النكت فى إعجاز القرآن ٧٥

وهكذا لكل مقام مقال ، فللسوقة كلام لا يصلح لعلية القوم وأمرائهم، ومايقال فى مقام الحرب أو الوعيد والتهديد يباين ما يقال فى مواطن توديع الأحبة أو بث الأشواق .

ومن ثم يتبين أن الحال : هو الأمر الداعى للمتكلم على أن يورد فى كلامه شيئا خاصا زائدا على أصل المعنى كالإنكار .

ومقتضى الحال : هو ذلك الأمر الزائد الذى جعله المتكلم فى كلامه لاقتضاء الحال إياه كالتأكيد للمنكر .

ومطابقة الكلام لمقتضى الحال : هى اشتمال الكلام على ذلك الشيء الزائد .

يقول الخطيب القزوينى : أما بلاغة الكلام فهى مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ومقتضى الحال مختلف ، فإن مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام التنكير يباين مقام التعريف ، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد ، ومقام التقديم يباين مقام التأخير ومقام الذكر يباين مقام الحذف ، ومقام القصر يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة ، وكذا خطاب الذكى يباين خطاب الغبى ، وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام(١) .

هذا . ومراتب البلاغة تتفاوت فى العلو والانحطاط بتفاوت مراعاة تلك الأحوال والمقامات، واعتبار ما يناسبها من المقتضيات والخصائص فكلما كانت رعاية تلك الأحوال أتم وأوفى ، كان الكلام أبلغ وأسمى ، وكلما كانت تلك الرعاية أقل وفاء ، كان الكلام أدنى مرتبة وأقل بلاغة .

وللبلاغة طرفان : أعلى ، وهو ما تنقطع عنه الأطماع، وتحار فيه

---

(١) الإيضاح ٧

العقول وتخرس الألسنة ، وتعنو له أعناق أساطين البيان ، فذلك مرتبة الإعجاز وهذا إنما يكون بمراعاة جميع الأحوال، ظاهرها وباطنها، واعتبار مايلائمها من المقتضيات . وهذا أمر فوق مقدور البشر ، وانفرد به العليم الخبير ، ولهذا كان القرآن الكريم فى أعلى طبقات البلاغة لصدوره عمن هو أعلم بكافة الأحوال ظاهرها وخفيها ، وأعلم بمقتضياتها واعتباراتها(١).

والطرف الأسفل : هو الذى إذا غير الكلام عنه إلى ماهو دونه ، التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات وإن كان صحيح الإعراب .

وبين الطرفين مراتب كثيرة متفاوتة بعضها أعلى من بعض بحسب تفاوت المقامات ورعاية الاعتبارات والبعد من أسباب الإخلال بفصاحة الكلام وبلاغته .

يقول الرمانى « فأما البلاغة فهى على ثلاث طبقات : منها ماهو فى أعلى طبقة ، ومنها ماهو فى أدنى طبقة ، ومنها ماهو فى الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة ، فما كان فى أعلاها طبقة فهو معجز ، وهو بلاغة القرآن وما كان منها دون ذلك ، فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس(٢) .

والمراد ببلاغة المتكلم « ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ(٣) .

فالمتكلم بليغ إذا وجدت فيه هذه الملكة التى يتمكن بها من تأليف كلام بليغ متى شاء ، فى أى معنى يريد ، فالمتكلم بليغ إذا وجدت فيه هذه الملكة وإن لم ينطق . أما إذا فقد هذه القدرة لم يكن بليغا ، كذلك لا يكون بليغا إذا استطاع صوغ الكلام البليغ فى معنى دون غيره .

---

(١) المنهاج الواضح ٣٠
(٢) النكت فى إعجاز القرآن ٧٥
(٣) الإيضاح ٩

هذا . وقد اشترط العلماء فى بلاغة الكلام أن يسلم من العيوب المخلة بفصاحته وفصاحة أجزائه ، وعلى هذا فالبلاغة أخص من الفصاحة ، وكل كلام بليغ يكون فصيحاً وليس العكس .

ومن ثم يتضح قول البلاغيين : كل متكلم بليغ لابد أن يكون فصيحا وليس بلازم أن يكون كل متكلم فصيح بليغا ، فقد يصوغ المتكلم كلاما فصيحا غير مطابق لمقتضى الحال ، فيفقد شرط البلاغة .

يقول الشيخ الدسوقى « متى فقد الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد كما لو كان الكلام غير مطابق لمقتضى الحال كان الكلام غير بليغ ، ولو كان فصيحا(١) .

فمن الأساليب التى جانب صاحبها الصواب ، ولم تكن مطابقة لمقتضى الحال ماروى أن ذا الرمة دخل على عبد الملك بن مروان ، فاستنشده شيئاً من شعره ، فأنشده قصيدته التى مطلعها :

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا المَاءُ يَنْسَكِبُ ... كَأَنَّهُ مِنْ كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ(٢)

وكان بعبد الملك رمش ، وهو حمرة فى الجفن مع ماء يسيل من العين ، فتوهم أنه خاطبه أو عرض به ، فقال وما سؤالك عن هذا ياجاهل ، وأمر بإخراجه . كما دخل عليه جرير ، فابتدأ ينشده :

أَتَصْحُو أَمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحِ ... عَشِيَّةَ هَمَّ صَحْبُكَ بِالرَّوَاحِ

فقال له عبد الملك « بل فؤادك أنت » ياجرير ، وإن كان يخاطب نفسه

---

(١) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص جـ ١ ص ١٤٣ .

(٢) الكلى : جمع كلية ، وهما كليتان فى الجسم لإفراز البول ، والمفرية : المقطعة ، والسرب : السائل [illegible]

على عادة الشعراء ، إلا أن مواجهة الخليفة بهذا الأسلوب توهم أن الخطاب له وهذا مالا يليق .

كذلك فعل ابنه « هشام » بأبى النجم وقد أنشده :

وَالشَّمْسُ قَدْ كَادَتْ وَلَمَّا تفصلِ   كَأَنَّهَا فِي الأُفْقِ عَيْنُ الأَحْوَلِ

وكان هشام أحول ، فأمر به فحجب عنه مدة ، وقد كان قبل ذلك من خاصته ، يسمر عنده ويمازحه(١) .

ومن ذلك قول جرير :

هذا ابنُ عَمِّى فى دِمشقَ خليفةً   لو شئتُ سَاقَكُم إلىَّ قَطِينا(٢)

ففيه خروج عن مقتضى الحال ، فكان ينبغى أن يقول : « لو شاء » فيجعل الأمر موكولا إلى الخليفة ، بيد أنه قال « لو شئت » فجعل الخليفة كأنه شرطى منفذ لمشيئته .

وما يروى أنه لما زُفَّتْ قطرُ الندى بنتُ خمارَوَيْه بن أحمد بن طولون إلى الخليفة المعتضد ، كتب أحد كتاب الخليفة إلى خمارويه كتاباً جاء فيه « وأما الوديعة فهى بمنزلة شىء انتقل من يمينك إلى شمالك عناية بها ورعاية لها ، فعابه وزير الخليفة وكتب مكانها : « وأما الهدية فقد حسن موقعها عندنا وهى وإن بعدت عنك بمنزلة ماقرب منك » .

وكان الكاتب يعجب من حسن تعبيره ، ويقول : تسميتى لها بالوديعة نصف البلاغة ، فقال الوزير : ما أقبح هذا ، تفاءلت لامرأة زفت إلى

---

(١) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٢٢٢

(٢) المخاطبون رجال قبيلة « تغلب » ، وهم قوم الأخطل الشاعر ، وإنما جعل الخليفة ابن عمه ؛ لأن قبيلة « مضر » تجمعهما ، والقطين : الخدم .

زوجها بالوديعة ، والوديعة مستردة ، وقولك من يمينك إلى شمالك أقبح ، لأنك جعلت أباها اليمين وأمير المؤمنين الشمال .

الغرض من دراسة البلاغة

إن الدارس لعلوم البلاغة ، والمالك لملكتها يقف على جهات إعجاز القرآن الكريم ، فيكون بذلك مؤمناً عن يقين . موحداً عن عقيدة ، لا عن محاكاة وتقليد .

كما أنه يدرك بنفسه أسرار اللغة ودقائقها ، ويعرف مراتب الكلام ومزاياه ، ويميز جيده من رديئه نثراً كان أو شعراً ، ثم إن المتمكن منها إذا عرض لأى غرض من الأغراض أدرك القصد ، واهتدى إلى المقبول والمختار من القول .

من أجل هذا كانت حاجتنا إلى دراستها فوق حاجتنا إلى شأن آخر من شئون الحياة ، وماظنك بما يكشف لك عن سر ما للغة آبائك من قوة واعتزاز وما احتواه كتاب ربك رمز العظمة وآية الإعجاز(١) .

هذا . وقد أشاد بدراسة البلاغة ، والعناية بها أبو هلال العسكرى بقوله : إن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة ، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ماخصه الله به من حسن التأليف ، وبراعة التراكيب وماشحنه به من الإيجاز البديع والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة وجلله من رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمه وجزالتها ، وعذوبتها وسلاستها إلى غير ذلك من محاسنه التى عجز الخلق عنها ، وتحيرت عقولهم فيها .

---

(١) المنهاج الواضح ٥ ، والبلاغة والأدب ٢٥ .

وإنما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه ، وقصورهم عن بلوغ غايته فى حسنه وبراعته ، وسلاسته ونصاعته ، وكمال معانيه ، وصفاء ألفاظه .

فينبغى من هذه الجهة أن يقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله ومعرفة عدله ، والتصديق بوعده ووعيـــده على ما ذكره ، إذ كانت المعرفة بصحة النبوة تتلو المعرفة بالله جل إسمه .

ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة ، ومناقب معروفة ، منها أن صاحب العربية إذا أخل بطلبه ، وفرط فى التماسه ، ففاتته فضيله ، وعلقت به رذيلة فوته ، عفى على جميع محاسنه ، وعمى سائر فضيلته ، لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر ردىء ، ولفظ حسن وآخر قبيح ، وشعر نادر ، وآخر بارد بأن جهله ، وظهر نقصه .

وهو أيضاً إذا أراد أن يصنع قصيدة ، أو ينشىء رسالة — وقد فاته هذا العلم — مزج الصفو بالكدر ، وخلط الغرر بالعرر ، واستعمل الوحشى العكر فجعل نفسه مهزأة للجاهل ، وعبرة للعاقل(١)

كما أشاد بالبلاغة — أيضاً — الإمام عبد القاهر بقوله : إنك لا ترى علما هو أرسخ أصلا ، وأبسق فرعا ، وأحلى جنى ، وأعذب وردا ، وأكرم نتاجاً ، وأنور سراجاً من علم البيان الذى لولاه لم ترى لسانا يحوك الوشى ، ويصوغ الحلى ، ويلفظ الدر ، وينفث السحر ، ويقرى الشهد ، ويريك بدائع من الزهر ، ويجنيك الحلو اليانع من الثمر(٢) .

---

(١) الصناعتين ٧

(٢) دلائل الإعجاز ٤

علم المعانى

علم المعانى : هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال(١) .

والمراد بكلمة « علم » الملكة ، أو الأصول والقواعد .

والمراد بـ « أحوال اللفظ العربى » الأمور العارضة للجمل وأجزائها كالفصل والوصل والإيجاز والإطناب والمساواة ، وأحوال أجزاء الجملة كأحوال الإسناد وأحوال المسند إليه ، وأحوال المسند ، وأحوال متعلقات الفعل ، من حيث إن اللفظ العربى يطابق بها مقتضى الحال .

هذا . وينحصر علم المعانى فى ثمانية أبواب هى :

١ ــ أحوال الإسناد الخبرى .

٢ ــ أحوال المسند إليه .

٣ ــ أحوال المسند .

٤ ــ أحوال متعلقات الفعل .

٥ ــ القصر .

٦ ــ الإنشاء .

٧ ــ الفصل والوصل .

٨ ــ الإيجاز والإطناب والمساواة .

وقد انحصر علم المعانى فى هذه الأبواب الثمانية ، لأن الكلام إما خبر

---

(١) الإيضاح ٩

أو إنشاء ثم الخبر لابد له من إسناد ومسند إليه ومسند ، وأحوال هذه الثلاثة هى الأبواب الثلاثة الأولى ، ثم المسند قد يكون له متعلقات إذا كان فعلا أو متصلا به ، أو فى معناه كاسم الفاعل واسم المفعول ونحوهما ، وهذا هو الباب الرابع ، ثم الإسناد والتعلق كل واحد منهما يكون بقصر أو بغير قصر ، وهوا هو الباب الخامس ، والإنشاء هو الباب السادس ، ثم الجملة إذا قرنت بأخرى ، فتكون الثانية إما معطوفة على الأولى أو غير معطوفة وهذا هو الباب السابع ، ولفظ الكلام البليغ إما زائد على أصل المراد لفائدة أو غير زائد وهذا هو الباب الثامن .

الخبر والإنشاء

ينقسم الكلام إلى خبر وإنشاء :

فالخبر : هو الكلام الذى يحتمل الصدق والكذب لذاته .

بمعنى أنه يصح أن يقال لقائله إنه صادق فيه أو كاذب ، وذلك بأن تكون النسبة الكلامية المفهومة من الكلام مطابقة لما فى الخارج والواقع فيكون الخبر صدقا والمخبر به صادقا ، أو غير مطابقة له فيكون الخبر كذبا ، والمخبر به كاذبا .

وصدق الخبر أو كذبه يدوران حول النسبتين الكلامية والخارجية ، فإن توافقتا ثبوتا أو نفيا ، فالخبر صادق ، وإن لم تتوافقا فالخبر كاذب .

وصدق الخبر أو كذبه منظور فيه إلى ذات الجملة الخبرية بصرف النظر عن المخبر والواقع .

فإن بعض الأخبار مقطوع بصحتها ، لاتحتمل كذبا ، كأخبار الله تعالى ، وأقوال أنبيائه ا وكالبديهيات مثل : الواحد نصف الاثنين ، ومثل:

السماء فوقنا ، والأرض تحتنا إلى غير ذلك من الأشياء التى لاتحتمل كذبا وبعض الأخبار مقطوع بكذبها ، لاتحتمل صدقا كأقوال مسيلمة الكذاب وقولك الأرض فوقنا والسماء تحتنا مما لا يحتمل صدقا .

أما الإنشاء : فهو الكلام الذى لايحتمل الصدق والكذب لذاته .

وينقسم إلى قسمين :

طلبى : والمراد به مايستدعى مطلوبا غير حاصل عند الطلب ، لامتناع تحصيل الحاصل كقول عبد الملك بن مروان يوصى أبناءه :

يابنى كفوا أذاكم ، وابذلوا معروفكم ، واعفوا إذاقدرتم ، ولاتبخلوا إذا سئلتم ولا تلحفوا إذا سألتم .

وأنواعه خمسة هى :

١ ـ الأمر : كقوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين »(١)

٢ ـ والنهى : كقوله عز وجل : « ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا »(٢)

والاستفهام : كقوله جل شأنه : هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم »(٣)

---

(١) التوبة ١٢٣ (٢) الحجرات ١٢
(٣) الصف ١٠

٤ — والنداء كقول الشاعر :

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم

٥ — والتمنى : كقول الآخر :

ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب

وغير طلبى : والمراد به :مالا يستدعى مطلوبا غير حاصل وقت الطلب، كأساليب المدح والذم والقسم والتعجب ، وهذا النوع « غير الطلبى » ليس مجال بحث عند البلاغيين .

وسيأتى الحديث عن الإنشاء فى القسم الثانى إن شاء الله تعالى .

الإسناد الخبرى

إذا قلنا « العلم نور » نجد أننا ضممنا كلمة « نور » إلى العلم ، على وجه يفيد أن النور ثابت لمفهوم العلم .

وإذا قلنا « ليس حاتم الطائى بخيلا » نجد أننا ضممنا كلمة « بخيلا » إلى حاتم على وجه يفيد أن البخل منفى عن حاتم .

ويسمى المحكوم به « نور » و « بخيلا » مسنداً ، والمحكوم عليه فيهما « العلم » و « حاتم » مسند إليه ، وتسمى النسبة بينهما « إسناداً خبرياً » .

فالإسناد الخبرى : هو ضم كلمة إلى أخرى على وجه يفيد أن مفهوم إحداهما — وهو المحكوم به — ثابت أو منفى عن مفهوم الأخرى — وهو المحكوم عليه .

وهكذا ترى أن المحكوم به يسمى « مسنداً » والمحكوم عليه يسمى « مسنداً إليه » والنسبة بينهما تسمى « إسناداً » فكل جملة تامة لها ركنان أساسيان هما : المسند والمسند إليه ، وما زاد على ذلك من ألفاظ فى الجملة غير المضاف إليه والصلة قيود فى الجملة(١) .

هذا . وتقديم الحديث فى الإسناد على طرفيه « المسند إليه » والمسند » أجدر ، لأن الإسناد محل الفائدة ، ولأن مدار الصدق والكذب عليه .

---

(١) المضاف إليه والصلة من أجزاء المضاف والموصول ، هذا ومواقع المسند إليه الفاعل ، ونائب الفاعل ، والمبتدأ الذى له خبر ، وما أصله المبتدأ ومواقع المسند الفعل التام ، واسم الفعل ، والمصدر النائب عن فعله ، والمبتدأ المكتفى بمرفوعه وخبر المبتدأ ، وما أصله خبر المبتدأ ، والقيود ، المفاعيل ، والحال ، والتمييز ، والتوابع والنواسخ ، وأداة الشرط والنفى .

والدراسة فى أحوال الإسناد الخبرى تتناول ثلاث مسائل : الأولى: أغراض الخبر ، والثانية : تأكيد الخبر وعدمه،أو أضرب الخبر ، والثالثة كون الإسناد الخبرى حقيقة أو مجازاً .

أغراض الخبر

الأصل فى الخبر أن يلقى إلى المخاطب لأحد غرضين:

الأول : لإفادة المخاطب الحكم الذى تضمنه الخـــبر ، كأن تقول لآخر :

كان الخطيب القزوينى صاحب التلخيص ، مقبلا على العلم،مجباله ، يعينه على ذلك ، ذكاء نادر ، وبديهه قوية ، وتولى القضاء وسنه أقل من عشرين سنه فالمتكلم هنا بصدد أن يخبر المخاطب بما قد يجهله من حال الخطيب القزوينى ، ويسمى ذلك فائدة الخبر .

ويدخل فى هذا الغرض الأخبار التى تساق لإفادة القارىء أو السامع مضمونها التى تتصل بناحية من النواحى العلمية أو الإجتماعية أوالإقتصادية أو الظواهر والأحداث اليومية .

والثانى لإفادة المخاطب أن المتكلم عالم بالحكم الذى تضمنه الخبر .

كأن تقول لآخر « أنت تحفظ القرآن الكريم» . فالمتكلم هنا لا يقصد أن يعلم المخاطب بمضمون هذا الخبر، لأنه معلوم له بالبداهة ، وإنما يريد أن يفهمه أنه يعلم ذلك ، ويسمى ذلك « لازم فائدة الخبر».

ويدخل فى هذا الغرض إجابات الطلاب على أسئلة الإمتحانات .

هذا . وقد يخرج الخبر عن هـــذين الغرضين ، إلى أغراض أخرى :

يدركها اللبيب، ويتذوقها الأديب، ويعرفها الأريب، تفهم من السياق وقرائن الأحوال؛ ومن هذه الأغراض :

١ ـ التحسر : كقوله تعالى حكاية عن امرأة عمران «رب إنى وضعتها أنثى»(١) .

فامرأة عمران لم تقصد أن تخبر الله سبحانه بنوع ما وضعت، ولا أن تعلمه بأنها عالمة بذلك، إذ هو أعلم بما وضعت. وهو العالم بخفايا الأمور، لايخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء، وإنما هى تتحسر على خيبة رجائها، وفوات ما كانت تأمل، إذ كانت تود أن يكون المولود ذكراً لتهبه لبيت المقدس .

وكقول الشاعر :

ذَهَبَ الشبابُ فماله من عَوْدَةٍ
وأتى المشيبُ فأينَ منه المهربُ

فالشاعر يتحسر على ذهاب شبابه إلى غير رجعه، كما يتحسر على مجىء المشيب الذى لامفر منه ولا مهرب .

وكقول ابن الرومى :

تَوَخَّى حِمَامُ الموتِ أَوْسَطَ صِبْيَتِي
فَلِلهِ كَيفَ اختارَ واسِطَة العِقْدِ

عَلَى حِينِ شِمْتُ الخيرَ من لمحاتِهِ
وآنستُ من أفعالِهِ آيةَ الرُّشْدِ

طواهُ الرَّدَى عنِّى فأضحَى مزارُهُ
بعيداً على قُربٍ قريباً على بُعْدِ

---

(١) آل عمران ٣٦

لقد أعجزت فيه المنايا وعيدها
وأخلفت الآمال ما كان من وعد
لقد قل بين المهد واللحد لبثه
فلم ينس عهد المهد إذ ضم فى اللحد

فالشاعر يأسى ويتحسر على فقد ولده.

٢ - إظهار الضعف وسوء الحال، كقوله تعالى: حكاية عن زكريا عليه السلام «رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً»(١).

فإن زكريا عليه السلام، لم يقصد أن يخبر الله سبحانه بما آلت إليه حاله من ضعف، فإن الله عالم بكل شىء، يعلم السر وأخفى من السر، وهو الوسوسة فى القلب، وإنما أراد زكريا عليه السلام أن يظهر ضعفه وسوء حاله، وأنه بلغ من الكبر والضعف غاية لا أمل له بعدها فى الحياة.

وكقول عوف بن محلم الشيبانى:

إن الثمانين وبلغتها
قد أحوجت سمعى إلى ترجمان(٢)

فالشاعر يريد إظهار ضعفه وسوء حاله.

٣ - الإسترحام والإستعطاف، كقوله تعالى فى شأن سيدنا موسى عليه السلام «فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير»(٣).

---

(١) مريم ٤

(٢) يخاطب الشاعر عبد الله بن طاهر، وكان قد دخل عليه، فسلم عليه عبد الله فلم يسمع لضعفه وكبره، والترجمان فى الأصل الذى يفسر لغة بأخرى والمراد به مطلق المفسر والمكرر.

(٣) القصص ٢٤

فموسى عليه السلام قصد بكلامه الإستعطاف وطلب الرحمة من ربه ، وكقول الشاعر :

إلهي عبدُك العاصي أتاكا
مُقِرّاً بالذنوبِ وقَدْ دَعَاكا

فالشاعر يستعطف ويسترحم ، عسى أن يرحمه الله ، ويغفر له ما ارتكب من ذنوب وآثام .

٤ — النصح والإرشاد ، كقول النابغة الذبياني :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تَلُمُّهُ
على شَعَثٍ أَيُّ الرِّجالِ المهذبُ

فالنابغة يقصد أن يرشدنا إلى ما ينبغي أن يكون من وجوب التسامح والعفو ، عما يبدر بين الأصدقاء والإخوان من هنات ، فالكمال لله وحده .

وقول زهير بن أبي سلمى :

وَمَنْ يَكُ ذا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِه
على قومه يُسْتَغْنَ عنه ويُذْمَمِ

فزهير يسدى نصحه إلى الناس ، ويرشدهم إلى بذل المعروف والسخاء كي ينالوا حب الناس ورضاهم لا كراهيتهم وسخطهم .

---

(١) النابغة يخاطب النعمان بن المنذر ، وقوله: لاتلمه : بمعنى : لا تضمه ، والشعث في الأصل : انتشار شعر الرأس وتغيره ، فتكثر أوساخه والمراد هنا العيب .

٥ ـ الفخر كقول عمرو بن كلثوم :

إذا بلغَ الفطـامَ لنـا صَبيٌّ
تخِرُّ له الجبابرُ ساجدينا
ملأنا البرَّ حتى ضاق عنـا
وظهرُ البحرِ نملؤهُ سفينا

فالشاعر يفخر بقومه ، ويباهي بما لهم من البأس والقوة والمنعة .
وكقول المتنبي :

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني
والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

فالمتنبي يريد الفخر بشجاعته وفصاحته .

وقول الشاعر :

سواى يهابُ الموتَ أو يرهبُ الردى
وغيري يهوى أنْ يعيشَ مخلداً

فالشاعر يفخر بشجاعته وأنه لا يهاب الموت، ولا يفزع لمجيئه كغيره من الناس وقول أبي فراس الحمداني :

ومكارمي عددُ النجومِ ومنزلي
مأوى الكرامِ ومنزلُ الأضيافِ

فإن أبا فراس يريد الفخر بمكارمه وحسن شمائله .

٦ ـ المدح : كقول النابغة الذبياني في مدح النعمان بن المنذر :

فإنك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ
إذا طلعتْ لم يبدُ منهنَّ كوكبُ

فالنابغة لم يقصد الإخبار بما ذكر، وإنما يريد مدح النعمان وبيان رفعة قدره وعلو شأنه.

٨ — الذم كقول المتنبي في هجاء اسحق بن ابراهيم بن الأعور.

وَإِذَا أَشَارَ مُحَدِّثاً فَكَأَنَّهُ
قِرْدٌ يُقَهْقِهُ أَوْ عَجُوزٌ تَلْطِمُ

فقد شبه الشاعر هيئة إنسان غير مرغوب فيه، وهو يشير بيديه في حديثه بهيئة القرد الذي يضحك، أو العجوز التي تصفع خديها، وهو — كما ترى — فيه من القبح ما فيه.

وقول أبي محجن الثقفي في وصف قينة.

وَتَرْفَعُ الصوتَ أَحْيَاناً وَتَخْفِضُهُ
كما يَطِنُّ ذبابُ الرَّوْضَةِ الغَرِدُ

يقول ابن رشيق: فأي قينة تحب أن تشبه بالذباب[1]:

وقول الشاعر:

وتفتح — لا كانت — فماً لو رأيته
تخيلته باباً من النار يفتح

٨ — التهديد. كقوله تعالى: «وما الله بغافل عما تعملون»[2].

فإن الله تعالى لم يرد بالآية الإخبار بأنه ليس بغافل، فإن ذلك لا يجهله أحد، وإنما المقصود تهديد غلاظ الأكباد، ومن ابتعدوا عن طريق

(١) العمدة ح ١ ص ٢٠٢

(٢) البقرة الآية ٨٥

الرشاد بأن الله لهم بالمرصاد، وأنه يمهـــل ولا يهمل ، حتى إذا أخذهم لم يفلتهم ، وإنما يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

٩ — الحث وتحريك الهمة : كقوله تعالى « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة »(١) .

فالمقصود الحث وتحريك الهمة لنيل الدرجات العليا فى جنات الله .

وقوله تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما »(٢) .

فالمقصود — أيضاً — الحث وتحريك الهمة للجهاد فى سبيل الله ، وبذل النفس والنفيس لإعلاء كلمة الدين ، ورفع راية الإسلام .

وقول ابن نباته السعدى :

يَفُوتُ ضَجِيعَ التُّرَّهَاتِ طِـــلابُهُ
وَيَدْنُو إلى الحَاجَاتِ مَنْ بَاتَ سَاعِيًا(٣)

يريد أنه لا يدرك غايته إلا الساعى الجد، أما الذى يعلل نفسه بالأمانى الكاذبة ولا يشمر عن ساعد الجد فى سبيل الحصول عليها ونيلها فعاقبته الحرمان وفى هذا تحريك الهمه لنيل الدجات الرفيعة .

---

(١) يونس ٢٦

(٢) النساء ٩٥

(٣) الضجيع : المضاجع ، الترهات : الأباطيل والأمانى الكاذبة ، الطلاب : الشىء المطلوب .

١٠ - التوبيخ : كقول القائل :

وأنتَ الذي أخلفتني ما وعدتني
وأشمتَّ بي من كانَ فيك يلومُ

فالمقصود توبيخ المخاطب على سوء تصرفه الذي لا يدل على كرم الأخلاق وحميد السجايا .

هذا . والأغراض التي يخرج إليها الأسلوب الخبري كثيرة ومتنوعة، تدرك من سياق الكلام وقرائن الأحوال .

أضرب الخبر

لما كان الغرض من الكلام الإفصاح والإظهار ، فإنه يجب أن يكون المتكلم مع المخاطب كالطبيب مع المريض ، يشخص حالته ويعطيه ما يناسبها .

فحق الكلام أن يكون بقدر الحاجة ، لا زائداً عليها ، لئلا يكون عبثاً ، ولا ناقصاً عنها ، لئلا يخل بالغرض ، وهو الإفصاح والبيان(١) .

ومن ثم تكون صور الخبر تختلف في أساليب اللغة باختلاف أحوال المخاطب فإن كان المخاطب خالي الذهن عن الخبر ، غير متردد فيه ، ولا منكر له ، ولا منكر له ، فإن الكلام يلقى إليه بدون تأكيد لعدم الحاجة إليه كقوله تعالى : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ،(٢) .

---

(١) جواهر البلاغة ٥٨

(٢) الجمعة ٤

وقول أبي تمام :

ينالُ الفتى مِنْ عَيْشِهِ وهو جاهِلٌ
ويُكدِي الفتى في دَهْرِه وهو عالِمُ

فالمخاطب هنا خالى الذهن من مضمون الخبر ، وهو أن الفتى الجاهل قد يواتيه العيش فى سهولة ويسر ، بينما نرى الفتى العالم يكدح فى طلب العيش ، ويجهد فى سبيله ، لهـــذا لم يكن الشاعر بحاجة إلى تأكيده ، ويسمى هذا الضرب ابتدائياً لأنه أول مراتب الكلام ، ويستعمل حين يكون المخاطب خالى الذهن من مدلول الخبر .

وإذا كان المخاطب مترددا فى الخـــبر طالباً الوصول إلى معرفته ، والوقوف على حقيقته ، فإنه يحسن تقويته بمؤكد ، كقوله تعالى : إن الله يأمر بالعدل والإحسان(١)

وقول الشاعر :

إن الطبيبَ يمـــوتُ بالداءِ الذِي
قدْ كانَ يَشْفِي مثْـــلَهُ فيمَا مَضَى

فالمخاطب هنا يساوره شك فى مثل هـــذا الحكم لهذا أكد له الحكم استحسانا ليتمكن الخـــبر من نفسه ، غير أن التأكيد مستحســـن للمتردد مطلقـــاً .

ويسمى هذا الضرب طلبيا ، ويؤتى بالخبر من هذا الضرب ، حين يكون المخاطب شاكا فى مدلول الخبر ، طالباً التثبت من صدقه .

وإن كان المخــاطب منكرا للخبر الذى يراد إلقــاؤه إليــه ، وجب

---

(١) النحل ٩٠

توكيده بحسب الإنكار ، كقوله تعالى : «لتبلون فى أموالكم وأنفسكم »(١) .

وقول الشاعر :

وَاللهِ إِنِّى لَأَخُو هِمَّةٍ يَسْمُو إِلَى الْمَجْدِ وَلَا يَفْتُرُ

— وكما ترى — فقد جاء التوكيد فى الآية الكريمة بالقسم ونون التوكيد ، وفى قول الشاعر : بالقسم وإن ولام الإبتداء .

ويسمى هذا الضرب إنكاريا ، ويؤتى بالخبر من هذا الضرب حين يكون المخاطب منكراً .

ومن ثم نفهم قول الله تعالى حكاية عن رسل عيسى عليه السلام « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا : إنا إليكم مرسلون ، قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون ، قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون »(٢) .

فنرى أنه لما كذب أصحاب القرية الرسل فى المرة الأولى ، قالت الرسل «إنا إليكم مرسلون» فأكدوا الجملة بإن والجملة الإسمية ، ولما كذبوهم فى المرة الثانية قالوا : « ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » فأكدوا الجملة بإن واللام وصدروا الجملة بما هو فى معنى القسم ، وذلك لأن المخاطبين أمعنوا فى الإنكار لقولهم « ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون » .

---

(١) آل عمران ١٨٦

(٢) يس ١٣ — ١٦

قال ابن يعقوب المغربي : لاشك أن التأكيد في قول الإثنين الأولين في المرة الأولى « إنا إليكم مرسلون » أدنى من التأكيد في قول الثلاثة في التكذيب الثاني « ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » لأن الأول ليس فيه إلا التأكيد بإن والجملة الإسمية لعدم مبالغة المرسل إليهم في الإنكار . والثاني فيه التأكيد بالقسم المتضمن لجملة ربنا يعلم لأنها في تأويل نقسم بعلم ربنا ، أو بربنا العليم وبإن واللام والجملة الإسمية لمبالغة المخاطبين في الإنكار حيث قالوا « ما أنتم إلا بشر مثلنا » ففي هذا الكلام إنكار الرسالة بطريق الكناية التي هي أبلغ من الحقيقة لأن البشرية في زعمهم تستلزم نفي الرسالة، وقالوا ما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون » فبالغ المرسلون في التأكيد إزالة لهذا الإنكار البليغ فلا يلزم كون التأكيد على قدر الإنكار في العدد ، بل أن يقوى بقوته ، ويضعف بضعفه(١) .

هـذا . ويؤيد ماذكرناه جواب أبي العباس « المبرد » للكندى الفيلسوف عندما قال له: إني أجد في كلام العرب حشواً . يقولون: عبد الله قائم ، وإن عبد الله قائم ، وإن عبـد الله لقائم ، والمعنى واحد ، فقال أبو العباس : بل المعاني مختلفة ، فعبد الله قائم إخبار عن قيامه ، وإن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل وإن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر(٢) .

ومن ثم يتبين أن للخبر حسب حالات المخاطب ثلاثة أضرب وهي:

١ ـ ابتدائي: وهو ما يلقى إلى المخاطب الخالي الذهن، ويكون الكلام حينئذ خالياً من التأكيد .

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص حـ ١ ـ ٢٠٦

(٢) أنظر الإيضاح ١٤ والمفتاح ٨٢

٢ — طلبي : وهو مايلقى للمخاطب المتردد في الحكم ويكون الكلام حينئذ مصحوباً بمؤكد واحد استحسانا .

٣ — إنكاري : وهو ما يلقى إلى المخاطب المنكر لمضمون الخبر ، ويكون الكلام حينئذ مصحوباً بمؤكدين أو أكثر حسب قوة الإنكار أو ضعفه .

هذا . وحروف التوكيد كثيرة منها :

« إن » : كقوله تعالى : إن الله يأمر بالعدل الإحسان(١) .

وأن : كقوله تعالى : لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً(٢) .

و « لام الإبتداء » كقوله تعالى : ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون »(٣) .

و « أحرف التنبيه » كقوله تعالى : « ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم(٤) .

و « نون التوكيد » كقوله تعالى : ليسجنن وليكونن من الصاغرين(٥) .

و « الحروف الزائدة » لست عليهم بمسيطر(٦) .

---

(١) النحل ٩٠
(٢) الطلاق ١٢
(٣) يوسف ٥٧
(٤) آل عمران ١١٩
(٥) يوسف ٣٢
(٧) الغاشية ٢٢

والتكرير : كقوله تعالى : كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون(١) .

و « أما » الشرطية : كقوله تعالى : وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى »(٢) .

وكما يكون التأكيد فى الإثبات فإنه يكون أيضاً فى النفى كقولك : ما المهذب بمكروه .

---

(١) التكاثر ٣ ، ٤

(٢) الكهف ٨٨

خروج الخبر عن مقتضى الظاهر

وقد تقضى الأحوال العدول عن مقتضى الظاهر، وإيراد الكلام على خلافه لاعتبارات يلحظها البليغ . ويدركها اللبيب، وسلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة، ومن هذه الاعتبارات :

١ - أن ينزل العالم بفائدة الخبر منزلة الجاهل، لعدم جريه على مقتضى علمه فيلقى إليه الخبر كما يلقى إلى الجاهل، لأن من لا يعمل بعلمه هو والجاهل سواء .

يقال لتارك الصلاة العالم بوجوبها « الصلاة واجبة » فالمخاطب عالم بمضمون الخبر، أى بوجوب الصلاة، والمتكلم لا يريد الإخبار به، وإنما يريد أن يلفت انتباهه ليؤدى هذا الركن العظيم الذى هو عماد الدين، فنزل منزلة الجاهل لعدم عمله بمقتضى علمه .

وهذا الأسلوب أفضل فى الدعوة إلى التمسك بدين الله، لأننا لو قلنا لتارك الصلاة « أنت لا تصلى » فربما أخذته العزة بالإثم .

٢ - وقد ينزل غير السائل « خالى الذهن » منزلة السائل أو المتردد، إذا تقدم فى الكلام ما يشير إلى حكم الخبر ومضمونه، فيستشرف له استشراف المتردد الطالب كقوله تعالى : مخاطباً نوحا عليه السلام : « ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون »(١) .

وذلك لأن نوحاً عليه السلام عندما أمره الله سبحانه بأن يصنع الفلك « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا »(٢) ونهاه عن مخاطبته بالشفاعة لهم، صار مع كونه غير سائل فى مقام السائل المتردد .

---

(١) هود ٣٧ (٢) هود ٣٧

فقوله تعالى «ولا تخاطبنى» يشير إلى جنس الخبر وأنه عذاب وقوله تعالى «إنهم مغرقون» يشير إلى خصوص الخبر، فجاء الخبر مؤكدا استحسانا ليحسم الأمر عند نوح عليه السلام، ويصل الحكم الذى قضى الله به إلى نفس نوح بعد تهيئة وتمهيد.

يقول صاحب المطول: فصار المقام مقام أن يتردد المخاطب فى أنهم هل صاروا محكوما عليهم بالإغراق أم لا ويطلبه، فنزل منزلة الطالب، وقيل «إنهم مغرقون» مؤكدا، أى محكوم عليهم بالإغراق، والمراد أن الكلام المقدم يشير إشارة ما إلى جنس الخبر حتى إن النفس اليقظى، والفهم المتسارع يكاد يتردد فيه ويطلبه(١).

وقوله تعالى «وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء»(٢).

فالمتأمل فى هذه الآية الكريمة، يجد أن المخاطب بها خالى الذهن من الحكم أو من مضمون قوله تعالى «إن النفس لأمارة بالسوء» ولكن هذا الحكم، لما كان مسبوقا بجملة «وما أبرىء نفسى» وهى فى مضمونها تشير إلى أن النفس محكوم عليها بشىء غير محبوب أو مرغوب فيه أصبح المخاطب متطلعا إلى نوع هذا الحكم الذى يجهله ولا يدرى حقيقته نزل هذا المخاطب منزلة المتردد الشاك. وألقى إليه الخبر مؤكدا استحسانا، وقد زيدت فيه اللام المؤكدة نظرا لاستبعاد الحكم، وكيف أن يوسف عليه السلام، وهو ذو النفس الطاهرة يتهم نفسه ولا يزكيها.

يقول السيد شريف: فإن قلت: فلم أكد بتأكيدين. وكان يكفيه أحدهما؟ قلت لعل أحدهما لتقديم ذلك الملوح والآخر، لكون هذا الخبر فى نفسه مما لا يقبله الوهم(٣).

---

(١) المطول ٥٠ (٢) يوسف ٥٣

(٣) حاشية السيد على المطول ٥٠

وقول الشاعر :

فَغَنِّهَا وَهِيَ لَكَ الفِدَاءُ إِنَّ غِنَاءَ الإِبِلِ الحُدَاءُ(١)

فالشاعر حين قال : «غنها» ليشتد سيرها، صار السامع متطلعا إلى الحكم مترددا فيه ، أهو الحداء أم غيره ، فأكد له الخبر لتنزيله منزلة المتردد .

وقد أشاد الإمام عبد القاهر بهذا الأسلوب من الكلام بقوله :

فانظر إلى قوله «إن غناء الإبل الحداء» وإلى ملاءمته الكلام قبله وحسن تشبثه به ، وإلى حسن تعطف الكلام الأول عليه ، ثم أنظر إذا تركت «إن» فقلت : فغنها وهى لك الفداء ، غناء الإبل الحداء ، كيف تكون الصورة ، وكيف ينبو أحد الكلامين عن الآخر ، وكيف يشئم هذا ويعرق ذاك ، حتى لا تجد حيلة فى ائتلافهما ؟ حتى تجتلب لهما الفاء، فتقول فغنها ، وهى لك الفداء ، فغناء الإبل الحداء ، ثم تعلم أن ليست الألفة بينهما من جنس ما كان ، وأن قد ذهبت الأنسة التى كنت تجد ، والحسن الذى كنت ترى .

ويثنى الإمام على هذا النوع من الكلام وروى عن الأصمعى أنه قال: كنت أسير مع أبى عمرو بن العلاء ، وخلف الأحمر ، وكانا يأتيان بشارا فيسلمان عليه ، بغاية الإعظام ، ثم يقولان : يا أبا معاذ : ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ويسألانه ويكتبان عنه متواضعين له ، حتى يأتى وقت الزوال ، ثم ينصرفان وأتياه يوما فقالا : ما هذه القصيدة التى أحدثتها فى سلم بن قتيبة؟ قال هى التى بلغتكم ، قالوا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب، قال نعم بلغنى أن سلم بن قتيبة يتباصر بالغريب ، فأحببت أن أورد عليه مالا يعرف ، قالوا : فأنشدناها يا أبا معاذ ، فأنشدهما :

---

(١) فغنها : أى فغن لها ، والضمير للإبل، والحداء بضم الحاء وكسرها مصدر «حدا الإبل» إذا ساقها وغنى لها .

بكراً صاحبيَّ قبلَ الهجيرِ   إن ذاكَ النجاحَ فى التبكيرِ

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكانِ : إن ذاك النجاح فى التبكير « بكرا فالنجاح فى التبكير » كان أحسن ، فقال بشار إنما بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت إن ذاك النجاح فى التبكير ، كما تقول الأعراب البدويون ، ولو قلت : « بكرا فالنجاح » كان هـــذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل فى معنى القصيدة ، قال فقام خلف فقبل بين عينيه ، فهل كان هذا القول من خلف والنقد على بشار إلا للطف المعنى فى ذلك وخفائه(١) .

ومن هذا النوع أيضاً قول المتنبي يمدح سيف الدولة :

ترفَّقْ أيهـــا المولَى عليهم   فإنَّ الرفقَ بالجانِي عِتابُ(٢)

يريد أنهم إن كانوا جنوا وأخطأوا ، فترفق بهم ، فإن من رفق بمن جنى عليه كان رفقه عتابا ، والرفق بالجانى ، والإحسان إليه يجعله عبداً لك كقوله :

« وما قتلَ الأحرارِ كالعفوِ عنهم »

والأصل أن يأتى الخبر خاليا من التوكيد ، لأن المخاطب خالى الذهن من الحكم ولكن لما تقدم فى الكلام ما يشعر بنوع الحكم أصبح المخاطب متشوقا لمعرفته فنزل منزلة السائل المتردد الطالب ، واستحسن إلقاء الكلام إليه مؤكدا جريا على خلاف مقتضى الظاهر .

٣ ـ أن ينزل غير المنكر منزلة المنكر ، إذا ظهر عليه شىء من أمارات الإنكار كقوله تعالى « ثم إنكم بعد ذلك لميتون »(٣) .

---

(١) دلائل الإعجاز ١٨٠، ١٨١

(٢) ديوان المتنبي بشرح أبى البقاء العكبرى ج ١ ص ٧٩

(٣) المؤمنون ١٥

فالمخاطبون بالآية الكريمة لا ينكرون حقيقة الموت بالنسبة للإنسان، وأنه مهما طال أجله، فإن مصيره إلى الموت والفناء، بيد أنهم لما تكالبوا على مطالب العيش، وتمادوا في الغفلة، وأعرضوا عما ينفعهم في الآخرة، نزلوا منزلة المنكرين وألقى إليهم الخبر مؤكدا بإن ولام الابتداء.

وقول حجل بن نضلة القيسي:

جاءَ شَقِيقٌ عَارِضًا رُمْحَهُ ... إِنَّ بَنِي عَمِّكَ فِيهِم رِمَاحُ(١)

فإن شقيقا لا ينكر رماح بني عمه، ولكن بجيئه على صورة المعجب بشجاعته واضعا رمحه بالعرض على فخذيه في جهة أعدائه بدون اكتراث بهم بمنزلة إنكاره أن لبني عمه رماحا، ومن ثم ألقى إليه الخبر كما يؤكد للمنكر.

يقول صاحب المطول: فهو لا ينكر أن في بني عمه رماحا، لكن مجيئه واضعا الرمح على العرض من غير التفات وتهيؤ أمارة أنه يعتقد أن لا رمح فيهم، بل كلهم عزل لا سلاح معهم، فنزل منزلة المنكر، وخوطب خطاب التفات بقوله «إن بني عمك فيهم رماح» مؤكدا بإن(٢).

٤ - أن ينزل المنكر منزلة غير المنكر إذا كانت هناك دلائل وشواهد لو تأملها لارتدع وازال إنكاره، كقوله تعالى «وإلهكم إله واحد»(٣).

فالمخاطبون في الآية الكريمة، ينكرون وحدانية الله تعالى، وكان مقتضى الظاهر أن يلقى إليهم الكلام مؤكدا، ولكن الخبر ألقى إليهم بدون توكيد، لأن بين أيديهم من البراهين الساطعة، والأدلة القاطعة على وحدانية الله تعالى، مالو تأملوه لارتدعوا عن إنكارهم، ورجعوا إلى جادة الحق والصواب.

---

(١) شقيق اسم رجل، عارضا رمحه: أي واضعا له على العرض بأن جعله وهو راكب على فخذيه.

(٢) المطول ٥٠ (٣) البقرة الآية ١٦٣

ومن ثم فلم يعتد بهذا الانكار فى توجيه الخطاب إليهم ونزلوا منزلة غير المنكرين .

هذا . ومن هذا النوع أن يقال لمن ينكر فضل العلم « العلم نافع » ولمن ينكر ضرر الجهل « الجهل ضار » .

يقول صاحب المطول فى هـذا النوع من الأساليب كما تقول لمنكر الإسلام « الإسلام حق » من غير تأكيد لما معه من الدلائل على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام لكنه لا يتأملها ليرتدع عن الانكار(١) .

وهكذا . يخرج الكلام عن مقتضى الظاهر .

١ - فينزل العالم بالحكم منزلة الجاهل لعدم جريه على مقتضى علمه .

٢ - وينزل خالى الذهن منزلة المتردد إذا تقدم فى الكلام مايشير إلى حكم الخبر . منزلة المنكر

٣ - وينزل غير المنكر ، إذا ظهرت عليه أمارات الإنكار .

٤ - وينزل المنكر منزلة غير المنكر ، إذا كان لديه دلائل وشواهد لو تأملها لارتدع عن انكاره .

---

(١) المطول ٥٠ .

الحقيقة العقلية والمجاز العقلى

الحقيقة العقليه : هى إسناد الفعل أو مافى معناه إلى ما هو له .

كقوله تعالى : يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بعد موتها»(١) .

فالفعل يخرج ويحيي مسند إلى الله تعالى، وهو الفاعل الحقيقى للإخراج والإحياء .

وقوله تعالى : «إن الله عنده علم الساعه ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام»(٢)

فكل من الفعل «ينزل» و «يعلم» مسند إلى فاعله الحقيقى وهو «الله».

والمجاز العقلى هو : إسناد الفعل أو مافى معناه إلى غير ما هو له لعلاقة مع قرينة مانعه من إرادة الإسناد الحقيقى .

كقول المتنبى يصف ملك الروم بعد أن هزمه سيف الدولة :

وَيَمْشِي به العُكَّازُ فى الديرِ تائباً
وما كان يَرْضَى مشيَ أشْقَرَ أجْرَدَا(٣)

يريد إنه لما خافك ملك الروم ترهب وتاب ، وأخذ عصا مشى عليها

---

(١) الروم ١٩

(٢) لقمان ٣٤

(٣) العكاز : عصا يتوكأ عليها ، والجمع عكاكيز ، والأشقر من الخيل ما أشرب بياضه حمرة والأجرد : القصير الشعر .

بعد أن كان لا يرضى بمشي الخيل السراع ، وذلك لما لحقه من الهم فقد ضعف حتى صار لا يقدر أن يمشى إلا على عكازه .

فقد أسند الشاعر المشي إلى العكاز ، والعكاز لا يمشي ، وإنما الذى يمشي صاحب العكاز .

ومن ثم يتبين أن المجاز العقلى يستلزم أمرين :

١ - العلاقة : وهى الصلة بين المسند والمسند إليه المجازى .

٢ - القرينة : وهى الشيء الدال على أن فى هذا الإسناد مجازا .

هذا . والإسناد المجازى يكون إلى سبب الفعل أو زمانه أو مكانه أو مصدره ، أو بإسناد الفعل المبنى للفاعل إلى المفعول ، أو المبنى للمفعول إلى الفاعل .

وسمى هذا الإسناد مجازا عقليا ، لإسناده إلى العقل دون الوضع : فالعقل هو الذى يدرك هذا الإسناد ويميزه ، كما يسمى المجاز الحكمى ، والإسناد المجازى(١)

(١) أنظر المطول ٥٧

علاقات المجاز العقلى

المراد بالعلاقة : الصلة بين المسند والمسند إليه المجازى :

وهذه العلاقة باعتبار صدور الفعل من المسند إليه كما فى الفاعل ، أو من حيث وقوعه عليه ، كما فى المفعول ، أو كونه جزءا من مفهومه ، كما فى المصدر ، أو ظرفا له ، كما فى ظرف الزمان أو المكان ، أو من حيث كونه سببا فيه .

ومن ثم فعلاقات المجاز العقلى ست علاقات هى :

١ ــ الزمانية .

٢ ــ المكانية .

٣ ــ المصدرية .

٤ ــ السببية .

٥ ــ الفاعلية .

٦ ــ المفعولية .

وإليك البيـان :

١ ــ الزمانية : كقوله تعالى : فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا »(١)

فقد أسند الفعل «يجعل» إلى ضمير اليوم لوقوعه فيه .

يقول ابن يعقوب : نسب جعل الولدان شيبا جمع أشيب إلى اليوم مجازا

---

(١) المزمل ١٧

لأن الضمير فى «يجعل» له من باب الإسناد إلى الزمان ، والجعل فى الحقيقة لله تعالى(١)

وقول طرفة بن العبد :

سَتُبْدِي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلًا ويأتيك بالأخبارِ مَنْ لم تُزوِّدِ

يريد : ستطلعك الأيام على ما تغفل عنه ، وسينقل إليك الأخبار من لم تزوده :

فقد أسند «تبدى» إلى الأيام ، والأيام ليست هى الفاعل فى حقيقة الأمر بل زمن للإبداء ، فإسناد الإبداء إلى الأيام مجاز عقلى علاقتـه الزمانية .

وقول المتنبى :

ويومًا يَغِيظُ الحاسدينَ وحالةً أقيمُ الشَّقَا فيها مَقَامَ التنعمِ(٢)

يريد . أرجو أن أبلغ بك يوما يغتاظ فيه حسادى ، لما يرون من إعظامك لقدرى ، وكذلك أرجو أن أبلغ بك حالة تساعدنى على الانتقام منهم ، فأتنعم بشقائى فى حربهم .

ففى إسناد غيظ الحاسدين إلى ضمير اليوم مجاز عقلى ، علاقته الزمانية لأن اليوم هو الزمان الذى يحصل فيه الغيظ .

وقول جرير :

لقد لُمْتِنَا يا أمَّ غَيْلانَ فى السُّرَى ونِمْتِ وما ليلُ المطىِّ بنائمِ(٣)

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ح١ — ٢٥٣

(٢) الشقا : يمد ويقصر ، وهمزته منقلبة عن واو

(٣) السرى : السير ليلا ، والمطى : جمع مطية وهى الدابة

فى إسناد نائم إلى ضمير الليل مجاز عقلى ، علاقته الزمانية ، لأن الليل لا ينام ، وإنما منوم فيه .

وقول الشاعر :

هى الأمورُ كما شاهدتها دولٌ ... من سَرَّه زمنٌ ساءته أزمانُ

فقد أسند الإساءة والسرور إلى الزمن ، لأنهما واقعان فيه على سبيل المجاز العقلى .

ومنه قولهم : يوم مشرق ، وليل ممطر ، ونهار عاصف ، وطابت أيامك وسعدت أوقاتك .

فقد ترك الفاعل الحقيقى ، وأسند الفعل أو ما فى معناه إلى الفاعل المجازى وهو زمان الفعل . وحقيقة هذا الإسناد : يوم مشرقة شمسه فيه ، وليل ممطر سحابه فيه ، ونهار عاصفة ريحه فيه ، وطبت فى أيامك وسعدت فى أوقاتك ، وكما ترى ، العلاقة فى كل ذلك الزمانية .

٢ — المكانية : كقول المتنبى :

وكُلُّ امرىءٍ يُولى الجميلَ محبَّبٌ ... وكلُّ مكانٍ ينبتُ العِزَّ طَيِّبُ

يريد : أن الممدوح يوليه الجميل ويحبه ، فهو عنده طيب يختار على أهله قال ابن جنى : كل من حصل فى خدمتك علا قدره[1] .

فقد أسند الشاعر «ينبت» إلى ضمير المكان لعلاقته المكانية ، وحقيقة الكلام : وكل مكان ينبت الله فيه العز طيب .

---

(١) ديوان المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى ج ١ — ١٨٢

وقول الشاعر :

مَلَكْنا فَكَانَ العفوُ مِنَّا سَجِيَّةً ... فلمَّا ملكتمْ سالَ بالدمِ أبطحُ(١)

يريد الشاعر أن قومه عندما ملكوا عفوا وصفحوا بينما المخاطبون عندما ملكوا أسرفوا وبغوا وأكثروا من سفك الدماء حتى سال الدم بالأبطح

فقد أسند الشاعر «سال» إلى «أبطح» على سبيل المجاز العقلى لعلاقة المكانية لأن المكان لا يسيل ، وإنما يسيل الدم المراق فيه .

ومنه قولهم : نهر جار ، وطريق سائر ، فيسند الجرى إلى النهر ، والسير إلى الطريق ، والأصل : نهر جار ماؤه فيه ، لأن الجارى هو الماء لا النهر الذى هو مكان جريه ، وطريق سائر أهله فيه ، لأن الطريق لا يسير ، وإنما الناس هم الذين يسيرون على سبيل المجاز العقلى ، مبالغة فى قوة فيضان الماء ، وشدة إزدحام الطريق ، فيخيل للسامع أن النهر هو الذى يجرى ، وأن الطريق هو الذى يسير ، والعلاقة المكانية والقرينة التى دلت على هذا المجاز استحالة وقوع الجرى من النهر والسير من الطريق .

يقول ابن يعقوب : وكقولهم فيما بنى للفاعل ، وأسند للمكان مجازاً نهر جار فإن الجارى هو الماء لا النهر الذى هو مكان جريه(٢) .

٣ — المصدرية : كقول أبى تمام :

تَكادُ عَطَاياهُ يُجَنُّ جُنُونُها ... إِذَا لم يُعَوِّذْها بِرُقْيَةِ طَالِبِ(٣)

---

(١) الأبطح مسيل واسع فيه دقائق الحصى .

(٢) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص حـ ١ — ٢٢٩

(٣) « إذا لم يعوذها » أى إذا لم ينقذها ويحفظها ، «والرقية» ما يقال للأطفال بقصد حمايتهم من أعين الحساد ، و « الطالب » المحتاج للعطاء .

يصف الشاعر ممدوحه بالكرم والسخاء ، وأنه عود عطاياه أن يدفع بها ، إلى طالبي معروفه وإلى المعوزين والبائسين ، حتى إذا ما ونى قليلا ثارت ثائرتها وكاد يصيبها جنون ما لم يسعفها ببذلها إلى من يستحقها .

فقد أسند الفعل « يجن» إلى المصدر « جنون » على سبيل المجاز العقلى والعلاقة المصدرية ، والذى سوغ ذلك الإسناد أن المصدر جـــزء من مفهوم الفعل .

وقول أبى فراس :

سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ
وفى الليـــلةِ الظلماءِ يُفتقَدُ البدرُ

يريد : أن قومه سيذكرونه إذا اشتد الخطب ، وعظم الأمر ، فلا يجدونه ، ولا غرو ، فالناس يبحثون عن البدر عند ما يشتد الظلام .

فقد أسند الشاعر الفعل « جد » إلى المصدر « جدهم » على سبيل المجاز العقلى والعلاقة المصدرية .

ومنه قولهم : محمد برعت براعته ، وفصحت فصاحته ، وعذبت عذوبته وحقيقة هذا الإسناد : محمد برع براعة ، وفصح فصاحة ، وعذب عذوبة .

يقول الشيخ الدسوقى : قوله « جد جده » أى جد اجتهاده ، وأصله جد زيد جدا ، أى اجتهادا ، لأن حق الجد أن يسند للفاعل الحقيقى ، وهو الشخص لا للجد نفسه لكن أسند إليه لمشابهته له فى تعلق الفعل بكل منهما لأن ذلك الفعل صادر من الشخص ، والمصدر جزء من معنى ذلك الفعل(١) .

---

(١) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص حـ ١ - ٢٣٩

٤ – السببية : كقوله تعالى : إن فرعون علا فى الأرض ، وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم(١).

فقد أسند الضمير فى يذبح إلى فرعون ، وفرعون نفسه لم يذبح ، وإنما أعوانه هم الذين كانوا يذبحون مؤتمرين بأمره .

يقول صاحب الإيضاح : الفاعل غيره ، ونسب الفعل إليه لكونه الآمر به(٢) .

كما يقول ابن يعقوب المغربى : إن فيه إسناد التذبيح إلى فرعون ، وهو سبب آمر والمذبح فى الحقيقة أعوانه(٣) .

وقوله تعالى : وإذ تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا »(٤) .

يقول الخطيب القزوينى : نسبت الزيادة التى هى فعل الله إلى الآيات لكونها سببا فيها(٥) ،

ويقول بهاء الدين السبكى : نسب الزيادة للآيات وهى لله تعالى ، وكذلك يذبح أبناءهم ، نسب التذبيح لفرعون ، لكونه الآمر به(٦) .

وقول جليلة فى أخيها « جساس » عند ما قتل زوجها « كليب » .

---

(١) القصص ٤
(٢) الإيضاح ١٩
(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص حـ ١ – ٢٥٢
(٤) الأنفال ٢
(٥) الإيضاح ١٩
(٦) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص خـ ١ – ٢٥٢

فِعْلُ جَسَّاسٍ عَلَى وَجْـدِي بِهِ
قَاصِمٌ ظهرى ومُدْنٍ أَجَلِى(٦)

ففعل « جساس » لم يقصم ظهرها ، ولم يدن أجلها ، بيد أنه سبب فى دنو الأجل وقصم الظهر فنى إسناد قاصم ومدن إلى ضمير فعل جساس مجاز عقلى علاقته السببية .

وقول أبى الطيب المتنبى يمدح كافورا الإخشيدى :

أَبَا المِسْكِ أَرْجُو مِنْكَ نَصْراً على العِدَى
وآمُلُ عِزًّا يَخْضِبُ البِيضَ بالدَّمِ(١)

يريد : أرجو منك أن تنصرنى على أعدائى ، وأن تعطينى من العز ما أتمكن به من أخضب سيوفى بدمائهم .

فإسناد « يخضب » إلى ضمير « العز » مجاز عقلى ، علاقته « السببية » لأن العز لا يخضب السيوف بالدم ، ولكنه سبب القوة ، وجمع الأبطال الأقوياء الذين لا يخافون الموت ، وإنما يخضبون السيوف بالدماء .

وقول المتنبى :

والهمُّ يخترمُ الجسيمَ نَحَافَةً ويُشِيبُ ناصيةَ الصبىِّ ويُهْرِمُ(١)

يريد : الحزن يذهب جسد العظيم الجسد هزالا ، ويهرم الصبى قبل

---

(١) الوجد : الحزن .
(٢) أبا المسك : كنية كافور الإخشيدى ، والبيض : السيوف .
(٣) يخترم يهلك ويستأصل ، والجسيم العظيم الجسد ، والنحافة : الهزال والهرم : الضعف والعجز عن الحركات .

أو أنه فإسناد « يخترم ويشيب » إلى ضمير « الهم » مجاز عقلي علاقته السببية .

٥ — الفاعلية : كقولهم « جعلت بيني وبينك حجابا مستورا » أي ساترا فقد جعل الحجاب مستورا مع أنه هو الساتر ، فاستعمل اسم المفعول مكان اسم الفاعل — وكما ترى — فقد أسند « مستورا » وهو اسم مفعول إلى ضمير الحجاب ، على سبيل المجاز العقلي لعلاقة الفاعلية ، لأن الحجاب يكون ساترا لا مستورا .

وقولهم : « سيل مفعم » بفتح العين ، فقد أسند اسم المفعول من أفعم المبني للمجهول إلى ضمير الفاعل إسنادا مجازيا ، من إسناد ما هو في معنى الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه والعلاقة الفاعلية .

يقول ابن يعقوب : كقولهم فيما بني للمفعول وأسند للفاعل مجازا « سيل مفعم » فإن السيل « مفعم » بكسر العين أي مالىء ، لا « مفعم » بالفتح أي مملوء ، يقال : أفعمت الإناء ماء(١) ملأته ماء .

كما يقول الشيخ الدسوقي : أصله أفعم السيل الوادي بمعنى ملأه ، ثم بني أفعم للمفعول ، واشتق منه اسم المفعول ، وأسند لضمير الفاعل الحقيق وهو السيل بعد تقديمه وجعله مبتدأ(٢) .

٦ — المفعولية : كقوله تعالى : « فهو في عيشة راضية »(٣) .

فقد أسند « راضية » إلى ضمير العيشة على سبيل المجاز العقلي لعلاقة المفعولية لأن العيشة مرضية لا راضية .

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ١ — ٢٣٩

(٢) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص جـ ١ — ٢٣٨

(٣) القارعة ٧

وفى هذا مبالغة فى النعيم الذى أعده الله للمؤمنين فرضوا به وسعدوا لدرجة أن هذه العيشة أصبحت راضية بصاحبها ، وإن كان الأصل أن يرضى بها صاحبها .

يقول ابن يعقوب : كقولهم فيما بنى للفاعل وأسند للمفعول مجازا « عيشة راضية » فإن العيشة مرضية ، وإنما الراضى صاحبها(١) وقوله تعالى: خلق من ماء دافق »(٢) .

فقد أسند اسم الفاعل « دافق » إلى ضمير المفعول لعلاقة المفعولية . وفى التعبير « بدافق » مبالغة فى سرعة إندفاعه ،

وقول الحطيئة يهجو الزبرقان بن بدر :

دَعِ المكارمَ لا ترحلْ لبُغْيتِها
واقعدْ فإنكَ أنتَ الطاعمُ الكاسِي

يريد : دع معالى الأمور ، ولا تحاول طلابها ، فلست أهلا لها ، والأجدر بك أن تبقى فى بيتك كلا على غيرك تتلقى الحسنات من أربابها .

فقد أسند الشاعر الوصف المبنى للفاعل « الطاعم الكاس » لضمير المفعول ، على سبيل المجاز العقلى لعلاقة المفعولية ، وحقيقة الكلام : فاقعد فإنك أنت المطعوم المكسو لأن المناسب لمن ليس أهلا للمعالى أن يكون مطعوما مكسوا ، لا طاعما كاسيا .

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ١ — ٢٣٨

(٢) الطارق ٦ .

وقول النابغة الذبيانى :

فَبِتُّ كَأَنِّى سَاوَرَتْنِى ضَئِيلَةٌ
من الرُّقْشِ فى أنيابها السمُّ ناقِعُ(١)

فقد أسند اسم الفاعل « ناقع » إلى ضمير السم على سبيل المجاز العقلى لعلاقة المفعولية ، فالسم لا يكون ناقعا ، وإنما يكون منقوعا فى ماء أو غيره .

هذا . وكما يأتى المجاز العقلى فى النسب الإسنادية — كما سبق — فإنه يأتى فى النسب الإضافية ، كقوله تعالى : « وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار »(٢) والتقدير : بل مكر الناس فى الليل والنهار ، وقولك : أعجبنى جرى النهر والأصل : جرى الماء فى النهر .

ويأتى فى النسب الإيقاعية ، وهى النسب الواقعة بين الفعل والمفعول كقوله تعالى : « ولا تطيعوا أمر المسرفين »(٣) .

فقد أوقع الإطاعة على « الأمر » وحقها أن توقع على ذى الأمر لأنه المفعول به حقيقة ، والأصل ولا تطيعوا المسرفين بسبب أمرهم .

وكقولك : أجريت النهر ، والتقدير : أجريت الماء فى النهر . ويأتى كذلك فى النسب الإنشائية ، كقوله تعالى : يا هامان ابن إلى صرحا »(٤)

---

(١) ساورتنى : واثبتنى ، ضئيلة : أفعى دقيقة اللحم .
الرقش : جمع رقشاء فيها نقط بيض وسود — الناقع : القاتل الثابت .
(٢) سبأ ٣٣
(٣) الشعراء ١٥١
(٤) غافر ٣٦

فقد أسند الأمر « بالبناء » إلى هامان ، وهذا الفعل من صنع العامل ، وإنما أسند إلى هامان لأنه سبب آمر به .

يقول ابن يعقوب : قوله تعالى : حكاية عن أمر فرعون « يا هامان ابن لى صرحا » فإن فيه إسناد الأمر بالبناء إلى هامان مجازا لكونه سببا آمرا والأمر فى الحقيقة للعملة(١) .

كما يقول صاحب المطول : إن المجاز العقلى أعم من أن يكون فى النسبة الإسنادية أو غيرها ، فكما أن إسناد الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه مجازا ، فكذا إيقاعه على غير ما حقه أن يوقع عليه ، وإضافة المضاف إلى غير ما حقه أن يضاف إليه ، لأنه جاز موضعه الأصلى(٢) .

قرينة المجاز العقلى

القرينة : هى الدليل الذى ينصبه المتكلم ليعرف السامع أن الإسناد مجاز عقلى ، وهى نوعان : لفظية ومعنوية .

فالقرينة اللفظية : هى لفظ فى الكلام يصرف الإسناد عن ظاهره .

كقول أبى النجم العجلى :

قَدْ أَصْبَحَتْ أُمُّ الخِيَارِ تَدَّعِى عَلَىَّ ذَنْباً كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعِ
مِنْ أَنْ رَأَتْ رَأْسِى كَرَأْسِ الأَصْلَعِ مَيَّزَ عَنْهُ قُنْزُعاً عَنْ قُنْزُعِ

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ح ١ - ٢٥٥

(٢) المطول ٥٩

جذب الليالى أبطئ وأسرعى

أفناهُ قيلُ اللهِ للشمسِ اطْلُعِى   حتى إذا واراكِ أُفْقٌ فارجِعى(١)

يريد أن يقول : إن أم الخيار « زوجته » أصبحت تدعى على ذنوبا لم أرتكب شيئا منها ، لرؤيتها رأس كرأس الأصلع لكبرى وشيخوختى ميز وفصل مر الأيام ومضى الليالى الشعر الذى بقى حوالى الرأس وجوانبه ثم قال أفناه قيل الله وأمره للشمس بالطلوع والغروب .

فقد أسند الشاعر « ميز » إلى جذب الليالى على سبيل المجاز العقلى لعلاقة السببية أو الزمانية ، والقرينة لفظية وهى .

« قيل الله » وهذه القرينة تدل على أن الشاعر مؤمن بالله وأنه يريد المجاز العقلى .

يقول صاحب المطول : فإنه يدل على أنه يعتقد أن الفعل لله وحده وأنه المبــدىء والمعيد ، والمنشىء والمفنى ، فيكون الإسناد إلى جذب الليالى بتأول بناء على أنه زمن أو سبب(٢) .

---

(١) القنزعة : الخصلة من الشعر تترك على رأس الصبى ، أو هى ما أرتفع من الشعر وطال أو الشعر حوالى الرأس ، وجمعها قنازع وقنزعات ، وجذب الليالى ، مضيها واختلافها وأبطئ أو أسرعى صفة الليالى ، أى المقول فيها أبطئ أو أسرعى ، وقيل حال منها أى الليالى مقولا فيها أبطئ أو أسرعى ، والصلع : انحسار شعر مقدم الرأس لنقصان مادة [illegible] تلك البقعة ، ونصور [illegible] عنه ، واستيلاء الجفاف عليها والمواراة الستر ، قيل الله : قول الله .

(٢) المطول ، ٦٢

وقول الصلتان العبدى :

أشابَ الصغيرَ وأفنى الكبيرَ كَرُّ الغـداةِ ومَرُّ العشى
نروحُ ونغـدو لحاجاتِنا وحاجاتُ من عاشَ لا تنقضى
ألم ترَ لقمانَ أوصى ابنَهُ وأوصيتُ عمْرًا ونِعْمَ الوصى
فَلِتنا أنـنا مسلمونَ على دينِ صِدِّيقِنا والنبى(١)

فقد أسند الشاعر « أشاب » و « أفنى » إلى « كر الغداة ومر العشى » على سبيل المجاز العقلى من إسناد الفعل إلى السبب أو الزمن .

والقرينة الدالة على أن الإسناد مجازى ما ذكره من وصيه لقمان وأراد بها قوله تعالى « يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم »(٢) .

وكذلك البيت الأخير ، وهما دليلان على أن القائل مؤمن ، ولا يريد الإسناد الحقيقى .

والقرينة المعنوية : هى أمر غير لفظى يدل على أن الإسناد مجاز عقلى وهو أحد أمرين :

أحدهما : أن يكون صدور المسند من المسند إليه ، أو قيامه به مستحيلا عقلا أو عادة .

فالمستحيل عادة كقولك : بنى الأمير المدينة ، فإسناد البناء إلى الأمير مجاز عقلى من إسناد الفعل إلى سببه الآمر ، والقرينة معنوية ، وهى استحالة صدور الفعل من الفاعل المذكور عادة ، وإن أمكن عقلا .

---

(١) الغداة : أول النهار ، وكرها : رجوعها بعد ذهابها ، والعشى: أول الليل .

(٢) لقمان ١٣

والمستحيل عقلا كقولك محمد نهاره صائم ، فإسناد « صائم » إلى ضمير النهار مجاز عقلى علاقته الزمانية . والقرينة استحالة صدور الصيام من النهار .

والآخر : أن يكون الكلام صادرا من المؤمن « كقول غلام لهشام ابن عبد الملك أصابتنا سنون ثلاث ، فسنة أكلت اللحم ، وسنة أذابت الشحم وسنة طحنت العظم ، فإسناد الأفعال : أكلت وأذابت ، وطحنت إلى ضمير السنة مجاز عقلى ، والقرينة غير لفظية لأن الكلام صادر من المؤمن الذى يسند مثل هذه الأفعال إلى الله تعالى(١) .

---

(١) المعانى فى ضوء أساليب القرآن ١٥٥

استلزام المجاز العقلى الحقيقة

يرى الخطيب القزوينى أن الفعل المبنى للفاعل فى المجازاً العقلى يجب أن يكون له فاعل فى التقدير إذا أسند إليه يكون الإسناد حقيقياً.

بيد أن هذا الفاعل الحقيق تارة يكون ظاهراً يدرك بيسر وسهولة وتارة يكون خفياً يحتاج إلى تأمل وإنعام النظار.

يقول الخطيب « واعلم أن الفعل المبنى للفاعل فى المجاز العقلى، واجب أن يكون له فاعل فى التقدير، إذا أسند إليه، صار الإسناد حقيقة، وذلك قد يكون ظاهراً كما فى قوله تعالى : « فما ربحت تجارتهم »(١).

أى فما ربحوا فى تجارتهم، وقد يكون خفياً، لا يظهر إلا بعد نظر وتأمل، كما فى قولك : سرتنى رؤيتك، أى سرنى الله وقت رؤيتك، كما تقول — أصل الحكم — فى أنبت الربيع البقل — أنبت الله البقل وقت الربيع وفى شفى الطبيب المريض — شفى الله المريض عند علاج الطبيب، وكما فى قولك: أقدمنى بلدك حق لى على فلان، أى أقدمتنى نفسى بلدك لأجل حق لى على فلان، أى قدمت لذلك، ونظيره — محبتك جاءت بى إليك — أى جاءت بى نفسى إليك لمحبتك أى جئتك لمحبتك. وإنما قلنا : إن الحكم فيها مجاز، لأن الفعلين فيهما مسندان إلى الداعى، وهو السبب، والداعى لا يكون فاعلا، وكما فى قول أبى نواس :

يَزِيدُكَ وجهُهُ حُسْناً إذَا مَا زِدْتَه نَظَراً

---

(١) البقرة الآية ١٦

أى يزيدك الله حسنا فى وجهه لما أودعه من دقائق الجمال متى تأملت(١) .

أما الإمام عبدالقاهر فيرى أن من أساليب المجاز العقلى مايمكن الرجوع بالإسناد إلى الفاعل الحقيقى مثل « نام ليلى » وقوله تعالى : فما ربحت تجارتهم ، فمن اليسر أن تقول : نمت فى ليلى ، وربحوا فى تجارتهم ، وهناك أساليب أخرى للمجاز العقلى لم يؤلف استعمالها مسندة إلى الفاعل الحقيقى .

يقول الإمام : « واعلم أنه ليس بواجب فى هذا أن يكون للفعل فاعل فى التقدير إذا أنت نقلت « أسندت » الفعل إليه عدت به إلى الحقيقة مثل أن تقول فى « ربحت تجارتهم » ربحوا فى تجارتهم . . فإن ذلك فى كل شيء . ألا ترى أنه لا يمكنك أن تثبت للفعل فى قولك : أقدمنى بلدك حق لى على إنسان ، فاعلا سوى الحق ، وكذلك لا تستطيع فى قوله :

يزيدك وجهُهُ حُسْناً إذا مازِدتَه نظراً

أن تقدر « ليزيد » فى قوله : « يزيدك وجهه » فاعلا غير الوجه(٢) .

وبالتأمل نجد أنه لاخلاف يذكر بين الإمام عبد القاهر ، والخطيب القزوينى ، فالإمام لا ينكر أن كل فعل لابد له من فاعل ، بيد أنه يرى أن

---

(١) الإيضاح ٢٠

(٢) دلائل الإعجاز ١٩٥ — يريد أبو نواس أن وجهه لما فيه من نهاية الحسن وغاية الكمال ، كلما كررت النظر فيه ، زاده الله عندك حسنا وبهاء

هناك تراكيب جرت فى لسانهم على أسلوب المجاز العقلى، ولم يعهدها لسانهم جارية على أسلوب الحقيقة(١) .

السكاكى والمجاز العقلى

أنكر أبو يعقوب يوسف السكاكى : وجود المجاز العقلى فى الكلام ، وأرجع صوره إلى الإستعارة بالكناية ، والذى دفعه إلى ذلك، هو الرغبة فى تقليل الأقسام ، ومن ثم فقد أخرجه من علم المعانى ، وأدخله فى علم للبيان .

يقول للسكاكى: وإذا تأملت المجاز العقلى ، وجدت الحاصل منه يرجع إلى إيقاع نسبة فى غير موضعها عند الموقع، لا من حيث اللغة ، لضرب من التأويل مثل النسبة بين إثبات البقل والربيع . . هذا كله تقرير الكلام فى هذا الفصل بحسب رأى الأصحاب ، من تقسيم المجاز إلى لغوى وعقلى، وإلا فالذى عندى هو نظم هذا النوع فى سلك الإستعارة بالكناية، بجعل الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقى بواسطة المبالغة فى التشبيه ، على ما عليه مبنى الإستعارة كما عرفت ، وجعل نسبة الإنبات إليه قرينة الإستعارة(٢) .

بيد أن الخطيب القزوينى أنكر ماذهب إليه السكاكى ، وأثبت وجود المجاز العقلى فى الكلام ، وأدخله فى علم المعانى.

يقول الخطيب : وأنكر السكاكى وجود المجاز العقلى فى الكلام ، وقال الذى عندى نظمه فى سلك الإستعارة بالكناية، بجعل الربيع استعارة

---

(١) أنظر خصائص التراكيب ٩٨ ــ ١٠١ .

(٢) المفتاح ١٨٩

بالكناية عن الفاعل الحقيقي، بواسطة المبالغة فى التشبيه على ما عليه مبنى الإستعارة، وجعل نسبة الإنبات إليه قرينة الإستعارة، وبجعل الأمير المدبر لأسباب هزيمة العدو استعارة بالكناية عن الجند الهازم وجعل نسبة الهزم إليه قرينة الإستعارة، وفيما ذهب إليه نظر، لأنه يستلزم ألا تصح الإضافة فى نحو قولهم «فلان نهاره صائم، وليله قائم» لأن المراد بالنهار على هذا فلان نفسه، وإضافة الشيء إلى نفسه لا تصح، ثم ما ذكره منقوض بنحو قولهم «فلان نهاره صائم» فإن الإسناد فيه مجاز، ولا يجوز أن يكون النهار استعارة بالكناية عن فلان، لأن ذكر طرفى التشبيه يمنع من حمل الكلام على الإستعارة، ويوجب حمله على التشبيه، ولهذا عد نحو قولهم «رأيت بفلان أسداً، ولقيني منه أسد» تشبيها لا استعارة(١).

هذا. والحق أن المجاز العقلى طريقه غير طريق الإستعارة بالكناية لأنها تقوم على علاقة المشابهة كغيرها من الإستعارات بخلافه، فلا يصح حمله عليها(٢).

كما أن الحقيقة والمجاز العقليين حالان من أحوال اللفظ العربى، وأنه يؤتى بها لأحوال تقتضيهما، لأن ملابسات الفعل السابقة تقتضى الإتيان بالمجاز العقلى عند قصد المبالغة، وعدمها يقتضى الإتيان بالحقيقة العقلية وبهذا يدخلان فى تعريف علم المعانى(٣).

---

(١) الإيضاح ٢١

(٢) بغية الإيضاح حـ ١ — ٧١

(٣) بغية الإيضاح حـ ١ — ٧٢

بلاغة المجاز العقلى

المجاز العقلى فن رفيع من فنون البلاغة ، وكنز من كنوزها لما يحويه من خيال بديع، وشأن هذا الأسلوب أن يحرك العاطفة، وأن يثير المشاعر، وأن يحرك الوجدان ، وفى ذلك متعة نفسية لا يعرف قدرها إلا ذوو الأذواق الرفيعة ، والملكات السامية .

هذا إلى جانب المبالغة فى أداء المعنى ، والإيجاز فى العبارة .

يقول الإمام عبد القاهر : وأعلم أن الذى ذكرت لك فى المجاز هناك من أن من شأنه أن يفخم عليه المعنى، وتحدث فيه النباهة قائم لك مثله هاهنا؛ فليس يشتبه على عاقل أن ليس حال المعنى وموقعه فى قوله ، فنام ليلى وتجلى همى . كحاله وموقعه إذا أنت تركت المجاز وقلت : فنمت فى ليلى وتجلى همى ، كما لم يكن الحال فى قولك : رأيت أسداً ، كالحال فى ، رأيت رجلا كالأسد ، ومن الذى يخفى عليه مكان العلو وموضع المزية، وصورة الفرقان(١) .

بين قوله تعالى « فمـــا ربحت تجارتهم » وبين أن يقال : فما ربحوا فى تجارتهم وإن أردت أن تزداد للأمر تبينا ، فانظر إلى بيت الفرزدق :

يَحْمِي إذا اخْتُرِط السيوفُ نساءَنا
ضربٌ تطيرُ له السواعدُ أرعلُ

وإلى رونقه ومائه، وإلى ما عليه من الطلاوة ، ثم أرجع إلى الذى هو على الحقيقة وقل : نحمى إذا اخترط السيوف نساءنا بضرب تطير له السواعد أرعل ، ثم أسبر حالك ، هل ترى مما كنت تراه شيئا ؟

---

(١) أى الفرق

وهذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق، والكاتب البليغ فى الإبداع والإحسان، والإتساع فى طرق البيان، وأن يجىء بالكلام مطبوعاً مصنوعاً، وأن يضعه بعيد المرام قريبا من الأفهام. ولا يغرنك من أمره أنك ترى الرجل يقول: أتى بى الشوق إلى لقائك، وسار بى الحنين إلى رؤيتك، وأقدمنى بلدك حق لى على إنسان، وأشباه ذلك مما تجد لسعته وشهرته يجرى مجرى الحقيقة التى لا يشكل أمرها، فليس هو كذلك أبدا، بل يدق ويلطف حتى يمتنع مثله إلا على الشاعر المفلق والكاتب البليغ، وحتى يأتيك بالبدعة لم تعرفها، والنادرة تأنق لها(١).

---

(١) دلائل الإعجاز ١٩٤

أحوال المسند إليه

المراد بأحوال المسند إليه الأمور التى تعرض له ، من حيث إنه مسند إليه وبها يطابق اللفظ مقتضى الحال ، من ذكر أو حذف ، أو تقديم أو تأخير ، أو تعريف أو تنكير إلى غير ذلك من الأمور التى تعرض له ، وبها يعبر الأديب عما يجول بخاطره ويختلج فى صدره ، ومن هذه الأحوال :

ذكر المسند إليه

المسند إليه هو المحكوم عليه ، وهو واجب الذكر إذا لم تكن هناك قرينة تدل عليه - لفظية أو حالية - فإذا كان ثم قرينة ، جاز ذكره وحذفه وأهم الدواعى والأغراض التى ترجح ذكره هى :

١ - بسط الكلام والإطناب فيه ، كقوله تعالى : حكاية عن سيدنا موسى عليه السلام « وماتلك بيمينك ياموسى قال هى عصاى أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمى ، ولى فيها مآرب أخرى »(١)

وكان يكفيه فى غير هذا المقام أن يقول فى الجواب « عصا » بيد أنه ذكر المسند إليه « هى » لبسط الكلام رغبة منه فى أن يطيل الحديث فى مناجاته لربه ، ليزداد بذلك شرفا وفضلا . ولذلك زاد على الجواب بقوله « أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى »

وأى مقام هو أدعى إلى بسط الكلام فيه كهذا المقام ؟ ولهذا لم يكتف موسى عليه السلام بذكر المسند إليه ، بل أعقب ذلك بذكر أوصاف لم يسأل عنها ، ولعله لم يذكر هذه المآرب طمعا فى أن يسأل عنها فيجيب .

---

(١) ط ١٧ ، ١٨

يقول ابن يعقوب : ومن هذا المعنى يطال الكلام مع الأحباء ، وأشراف القدر تعظيما بكلامهم ، وتشرفا بخطابهم ، وتلذذا بسماعهم(١)

كما يقول صاحب المطول : ولهذا يطال الكلام مع الأحباء . . وقد يكون بسط الكلام فى مقام الافتخار و الابهاج، وغير ذلك من الاعتبارات المناسبة ، كما يقال لك من نبيك ، فتقول نبينا حبيب الله أبو القاسم محمد بن عبد الله ﷺ إلى غير ذلك من الأوصاف(٢)

٢ ــ زيادة الإيضاح والتقرير : كقوله تعالى : أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ،(٣)

ففى تكرار اسم الإشارة « أولئك » زيادة تقرير وإيضاح لتميزهم بالشرف على غيرهم ، فكما ثبت أن تميزوا باستئثارهم بالهدى فى الدنيا ، ثبت لهم أيضا أن تميزوا باستئثارهم الفلاح فى الآخرة .

وكقولك « هؤلاء الطلاب جدوا ، وهؤلاء الطلاب نجحوا » فقد ذكر المسند إليه وهو اسم الإشارة الثانى لزيادة الإيضاح والتقرير ، وبيان أن هؤلاء الذين ثبت لهم الاجتهاد هم أنفسهم الذين ثبت لهم النجاح ،

وكقول شوقى :

والنفسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَافِيَةٍ
والنفسُ مِنْ شَرِّهَا فى مَرْتَعٍ وَخِمِ

فقد ذكر المسند إليه « النفس » الثانية لزيادة الإيضاح والتقرير ، وبيان

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ج ١ ، ١٨٥ .
(٢) المطول ٦٩
(٣) البقرة : ٦

أن النفس التى تسعد باستجابتها لنداء الحق والخير ، هى بذاتها التى تشقى بالأعراض عن جادة الحق والنزوع إلى جانب الشر .

٣ — الاحتياط لضعف التعويل على القرينة ، كقولك : أبو بكر نعم الصديق إذا سبق ذكره ، وطال عهد السامع به ، أو ذكر معه كلام فى شأن غيره من الصحابة الأجلاء .

يقول ابن يعقوب : أى يكون الذكر للاحتياط ، لأن فهم السامع من اللفظ أقرب من فهمه من القرينة ، إما لخفائها ، أو لعدم الوثوق بنباهة السامع ... فعلى هذا يقال مثلا عند قول السائل: ماذا قال عمرو ؟ عمرو قال كذا وكذا لضعف التعويل على قرينة السؤال ، لأن بعض السامعين مثلا تجوز عليه الغفلة عن السماع لها ، والتنبيه للفهم منها ، ولو كان الفهم منها واضحا فى نفسه(١)

٤ — التبرك بذكره كقولك : نعم محمد نبينا جوابا لمن سأل : هل محمد ﷺ نبيكم ؟

يقول ابن يعقوب : أو التبرك بذكره ، كأن يكون المسند إليه مجمع البركات فإذا قيل مثلا : هل قال هذا القول رسول الله ﷺ ، فتقول : نبينا ﷺ قال هذا القول ويكفى فى الجواب — لولا هذا القصد — أن يقال نعم ، أو قاله ليعلم أن قائله النبى ﷺ(٢)

٥ — التلذذ بذكره كقول الشاعر :

بالله ياظَبياتِ القاعِ قُلنَ لنَا ... ليلاىَ منكُنَّ أم ليلَى من البشرِ

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ١ ص ٢٨٣

(٢) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ١ ص ٢٨٤

فقـــد ذكر الشاعر المسند إليه « ليلى » لقصده التلذذ بسماع اسم محبوبته .

قال ابن يعقوب : أو استلذاذه ، بأن يكون فى ذكره لذة عند المتكلم فإذا قيل مثلا : هل حضر حبيبك فلان ، فتقول الحبيب فلان حاضر ، ويكفى - لولا هذا القصد - حضر(١)

٦ — تعظيمه : إذا كان اللفظ مما يدل على معنى التعظيم ، كقولك : العالم حاضر لمن سأل : هل حضر العالم ، فيذكر المسند إليه تكريما له ، وتنويها بقدره .

٧ — تحقيره : إذا كان اللفظ مما يدل على معنى التحقير كقولك : النمام قادم لمن سأل هل قدم النمام ، فيذكر المسند إليه ليكون موضع سخرية ومهانة .

٨ — التسجيل على السامع ، حتى لا يتأتى الإنكار ، كما إذا قال الحاكم لشاهد : هل أقر زيد هذا بأن عليه كذا لفلان ، فيقول الشاهد : نعم زيد هذا أقر بأن عليه كذا من المال لفلان ، فيذكر المسند إليه لئلا يجد المشهود عليه سبيلا إلى الإنكار .

٩ — التعريض بالمخاطب ، كقولك : القرآن الكريم شفاء لما فى الصدور لشخص يلهو ويعبث والقرآن يتلى .

وقول الفرزدق لهشام بن عبد الملك حين تجاهل زين العابدين لما رأى من إكبار الناس له :

هذا الذى تعرفُ البطحاءُ وَطْأَتَهُ ... والبيتُ يعرفه والحِلُّ والحَرَمُ

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ح ١ ص ٢٨٤

هذا ابنُ خيرِ عبادِ اللهِ كلِّهمُ ... هذا التقيُّ النقيُّ الطاهرُ العلَمُ
هذا ابنُ فاطمةٍ إن كنتَ جاهلَهُ ... بجدِّه أنبياءُ اللهِ قد خُتِموا
وليس قولُك من هذا بضائرِه ... العُرْبُ تعرفُ مَنْ أنكرتَ والعجمُ
إذا رأته قريشٌ قال قائلها ... إلى مكارمِ هذا ينتهى الكرمُ

١٠ — التعجب من المسند إليه ، عندما يكون الحكم غريبا كقولك : فلان يصارع الأسود عن شخص سبق ذكره .

هذا . وهناك أغراض أخرى يدركها اللبيب والمدار فى معرفتها على الذوق السليم .

حـــذف المسند إليه

يحذف المسند إليه من الكلام ، إذا كانت هناك قرينة تدل عليه ووجود مرجح للحذف على الذكر ، لتحقيق أغراض بلاغية تكسب الكلام قوة وجمالا وحسنا وبهاء .

يقول الإمام عبد القاهر : هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفاده ، وتجدك أنطق ماتكون إذا لم تنطق، وأتم ماتكون بيانا إذا لم تبن(١) .

هذا . وأهم الأغراض البلاغية لحذف المسند إليه هي :

١ ـ الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر ، لأن ماقامت عليه قرينة ووضح أمره ، كان ذكره عبثا في ظاهر الأمر لأنه معلوم من القرينه .

وإنما كان العبث ظاهريا ، لأن الحقيقة أن لا عبث في ذكره ، وإن قامت عليه القرينة ، لأن المسند إليه أعظم ركني الإسناد .

يقول صاحب المطول : بناء على الظاهر ، وإلافهو في الحقيقة الركن الأعظم من الكلام فكيف يكون ذكره عبثا (٢) .

كقول الشاعر :

سأشكرُ عمرًا إن تراختْ منيتي ... أياديَ لم تُمْنَنْ وإن هي جَلَّتِ
فتى غيرُ محجوبِ الغِنَى عن صديقِه ... ولا مظهرُ الشكوى إذا النعلُ زَلَّتِ
رأى خَلَّتِي من حيثُ يخفى مكانها ... فكانت قَذَى عينيه حتى تَجَلَّتِ(٣)

يريد هو فتى .

---

(١) دلائل الإعجاز ٩٥ (٢) المطول ٦٨

(٣) المراد الأيادي:النعم-لم تمنن : لم تنقطع أولم تخلط بمنة ـ زلت بمعنى: زلقت

يقول الإمام عبد القاهر : فتأمل الآن هذه الأبيات كلها واستقرها واحداً واحداً ، وانظر إلى موقعها فى نفسك ، وإلى ما تجده من اللطف والظرف . إذا أنت مررت بموضع الحذف منها ، ثم قلبت النفس عما تجد ، وألطفت النظر فيما تحس به ، ثم تكلف أن ترد ماحذف الشاعر ، وأن تخرجه إلى لفظك ، وتوقعه فى سمعك ، فإنك تعلم أن الذى قلت كما قلت ، وأن رب حذف هو قلادة الجيد ، وقاعدة التجويد(١) .

٢ - ضيق الصدر عن إطالة الكلام ، كقول الشاعر :

قالَ لى : كيفَ أنتَ ؟ قلتُ عليـــلُ
سهرٌ دائمٌ وحزنٌ طـــويلُ

أى أنا عليل ، وحالى سهر دائم وحزن طويل ، لحذف المسند إليه لضيق المقام بسبب مايعانيه من آلام .

وقد يكون ضيق المقام لخوف فوات فرصة ، كقول من ينبه فرق الإنقاذ غريق ، أو حريق . يريد القائل : هذا غريق ، أو هذا حريق ، فانظر وتأمل أسرار اللغة حينما تسمع هــذه الجملة القصيرة ، وقد حذف المسند إليه ، وتراها تثير همتك ونشاطك ، وتحرك منك جميع الجوارح ، لتستعد لواجبات البطولة ، ونداء الأخوة والإنسانية ، وكل ذلك حدث من حذف المسند إليه . وأصبحت العبارة كبرقية قصيرة تحرك الهمم وتهز المشاعر(٢) .

٣ - تعيين المسند إليه ، لكون المسند لايصلح إلا له ، كقوله تعالى :

---

(١) دلائل الإعجاز ١٠٠

(٢) من بلاغة النظم العربى ١٣٤

« كلا إذا بلغت التراقى »(١) . وقوله تعالى : « فلولا إذا بلغت الحلقوم »(٢) أى بلغت الروح الحلقوم .

فالحديث فى ذكر الموت ، ولا يبلغ التراقى عند الموت إلا الروح .

٤ — صونه عن الألسنة تعظيما له . كقولك « خاتم الأنبياء » أى محمد صلى الله عليه وسلم .

يقول ابن يعقوب المغربى : كما يحذف عند بناء الفعل للمفعول فيقال : رزقنا ومطرنا ، تعظيما لذكر اسم الرازق وصونه عن رذالة لسانك ، فتقول عند حذف المسند إليه من غير إنابة ، مقرر للشرائع ، وموضح للدليل ، فيجب الاتبـــاع ، تريد رسول الله ﷺ : ولم تذكره تعظيما وصوناً له عن لسانك(٣) .

٥ — صون اللسان عن ذكره احتقاراً له : كقولك : لعين رجيم ، أو مخذول مطرود تريد إبليس ، فيحذف لئلا يتلوث اللسان بذكره .

يقول الشيخ الدسوقى : « نحو موسوس ساع فى الفساد فتجب مخالفته » تريد الشيطان(٤) .

وكقول الشاعر فى ابن عم له موسر ، سأله فمنعه ، وقال : كم أعطيك مالى وأنت تنفقه فيما لا يعنيك . والله لا أعطينك ، فتركه حتى اجتمع القوم

---

(١) القيامة ٢٦

(٢) الواقعة ٨٣

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ١ ص ٢٧٩

(٤) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص جـ١ ص ٢٧٩

فى ناديهم وهو فيهم ، فشكاه إلى القوم وذمه ، فوثب إليه ابن عمه فلطمه فأنشأ يقول :

سريعٌ إلى ابن العمِّ يلطم وجهَه ... وليسَ إلى داعِي النَّدى بسريعِ
حريصٌ على الدنيا مُضِيعٌ لدينه ... وليس لما فى بيته بمُضيعِ

فالتقدير : هو سريع ، وهو حريص .

يقول بهاء الدين السبكى : يقول عن ابن عم له لطمه ، والأصل هو سريع لحذفه تحقيراً له(١) .

٦ — تأتى الإنكار وتيسره عند الحاجة إليه ، كقولك : فاجر كذاب ، تريد رجلا معروفاً ، فلا تذكره لتقول عند لومه لك : ما أردتك وإنما قصدت غيرك .

يقول بهاء الدين السبكى : « قد تدعو الحاجة إلى التكلم بشىء ، ثم تخشى من غائله ذلك فتنكره(٢) .

٧ — تعجيل المسرة كقولك: مكافأتى ، أوجائزتى ، تريد هذه مكافأتى، أو هذه جائزتى ، أو قولك للسائل دينار .

٨ — المحافظة على الوزن أو القافية أو السجع .

فالمحافظة على الوزن كقول الشاعر :

عَلَى أَنَّنِي رَاضٍ بِأَنْ أَحْمِلَ الهوى
وأخلصَ منـــه لا عَلَىَّ ولا لِيَا

والتقدير لا على شىء ولا لى شىء .

---

(١) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص جـ ١ ص ٢٧٨
(٢) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص جـ ١ ص ٢٧٩

والمحافظة على القافية كقول لبيد :

وما المالُ والأهلونَ إلا ودائعٌ ولابد يوماً أن تُردَّ الودائعُ

فقد حذف المسند إليه محافظة على القافية .

والمحافظه على السجع كقولك : من طابت سريرته ، حمدت سيرته أى حمد الناس سيرته .

٩ — اتباع الاستعمال الوارد . كقولهم : رمية من غير رام .
والمراد : هى رمية موفقة عن لا يحسن الرمى .

هذا . ويدخل فى الاستعمال الوارد النعت المقطوع إلى الرفع لقصد إنشاء المدح أو الذم أو الترحم .

يقول ابن يعقوب : وكاتباع الاستعمال على تركه لكونه مثلا لا يغير كقولهم « رمية من غير رام » يضرب مثلا لمن صدر منه ما ليس أهلا للصدور منه ، وكترك ذكره فى نظائره مثل مافيه الرفع على المدح كقولنا : الحمد لله أهل الحمد ، أى هو أهل الحمد ، أو الرفع على الذم كقولنا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بالرفع ، أى هو الرجيم ، أو الرفع على الترحم كقولنا : اللهم ارحم عبدك المسكين بالرفع أى هو المسكين . فالرفع على هذه الأوجه يوجب الحذف(١) .

هذا . وهناك أغراض أخرى تدعو لحذف المسند إليه ، يدركها من سياق الكلام .

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ج ١ ص ٢٨١

تقديم المسند إليه

يتقدم المسند إليه لأغراض بلاغية استدعاها المقام، واقتضاها الحال.

ومن هذه الأغراض :

١ — التشويق إلى ذكر الخبر إذا كان المسند إليه مشعراً بغرابة، كقول الشاعر :

ثلاثةٌ تُشرِقُ الدنيـــا ببَهْجتِهَا
شمسُ الضحَى وأبو اسحقَ والقمرُ

فقد قدم المسند إليه وهو « ثلاثة » لأنه اتصف بصفة غريبة تشوق النفس إلى الخبر المتأخر « وهى تشرق الدنيا ببهجتها » فإذا عرفت ذلك تمكن الخبر فى النفس فضل تمكن.

وقول أبى العلاء المعرى :

والذى حارتْ البريةُ فيــهِ حيوانٌ مستحدثٌ من جمادِ

فقد قدم المسند إليه « اسم الموصول » لأنه اتصل به مايدعو إلى العجب ويشعر بالغرابة وهو « حارت البرية فيه ».

ومن ذلك قولك « الذى يقاوم الأسود فى عرينها محمد »، أو « الذى يصيد الأفاعى من أوكارها » إبراهيم، وهكذا كل مايتضمن أمراً عجباً.

يقول صاحب المطول : ومعلوم أن حصول الشىء بعد التشوق ألذ وأوقع فى النفس(١) .

---

(١) المطول ١٠٧

٢ — تعجيل إظهار تعظيمه : كقوله تعالى : محمد رسول الله . والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم(١) وقولك رجل فاضل فى الدار .

٣ — تعجيل إظهار تحقيره : كقولك : الدنيا لاتساوى عند الله جناح بعوضه وقولك : رجل جاهل رحل عنا .

يقول ابن يعقوب : فيجب تقديمه كتعجيل إظهار تعظ... فاضل عندنا أو تحقيره : كرجل جاهل عندك ، وإنما قلنا تعجيل ... إظهار التعظيم والتحقير حاصل بالتأخير أيضاً ، والمختص بالتقديم تعجيل الإظهار أو شبه ذلك(٢) .

٤ — تعجيل المسرة أو المساءة ، كقولك سعد فى دارك والسفاح فى دار صديقك .

يقول ابن يعقوب : فالأول ، وهو مافيه تعجيل المسرة للسامع لأجل التفاؤل ، نحو « سعد فى دارك » ، ولا يخفى ما فى لفظ « سعد من التفاؤل » ، والثانى مافيه تعجيل المساءة للتطير نحو « السفاح فى دار صديقك » ، ولا يخفى أيضاً ما فى لفظ السفاح الدال على سفح الدماء من التطير لإشعاره بالقتل والإهلاك(٣) .

هذا ومن تعجيل المسرة قولك : العفو عنك صدر به الأمر .

ومن تعجيل المساءة قولك : القصاص حكم به القاضى .

٥ — إفادة تقوية الحكم وتقريره . وذلك إذا كان المسند فعلا رافعاً لضمير المسند إليه ، كقولك « الطالب أخلص فى عمله » ، فقد أفاد هذا التركيب تقوى الحكم ، لتكرار الإسناد ، لأن الفعل « أخلص » أسند

---

(١) الفتح ٢٩

(٢) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ١ ص ٣٩٥

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ١ ص ٣٩٤

مرتين، مرة إلى المسند إليه الظاهر « الطالب » وأخرى إلى ضميره المستتر فى الفعل، فهو بمثابة قولك « أخلص الطالب، « أخلص الطالب » وبتكرار الإسناد يتقوى الحكم، ويتقرر فى ذهن السامع،

ومثل حالة الإثبات حالة النفى مثل المهمل لم ينجح فى الامتحان فإنه يفيد الحكم الذى هو « نفى نجاح المهمل » قوه لتكرار الإسناد.

ومن ثم فقولك : « أنت لاتكذب » أقوى لنفى الكذب من قولك : « لاتكذب »، وقولك : « لاتكذب أنت ».

وذلك لأن الفعل فى قولك : أنت لاتكذب » قد اسند مرتين مرة إلى إلى المبتدأ، ومرة إلى ضميره، بخلاف الحال فى « لاتكذب » و « لاتكذب أنت » فإن الفعل مسند مرة واحدة، وهو إسناده إلى الضمير المستتر وأما « أنت » فى قولك « لاتكذب أنت » فإنه لتأكيد المحكوم عليه لا الحكم.

٦ — إفادة تخصيص المسند إليه بالمسند.

يرى الإمام عبد القاهر، أن المسند إليه، إذا تقدم على المسند الفعلى، أفاد تخصيصه به قطعا، أى قصر المسند الفعلى عليه، بشرط وقوع المسند إليه بعد أداة نفى، ويتحقق هذا فى ثلاث صور :

١ — ما محمد أعد هذه المائدة.

٢ — ما أنا أعددت هذه المائده.

٣ — ما رجل أعد هذه المائدة

فالمسند إليه فى هذه الأمثلة واقع بعد نفى، فتقديمه على المسند الفعلى يفيد تخصيصه به قطعا، لافرق أن يكون المسند إليه، اسما ظاهرا معرفة أو ضميرا، أو نكرة، كما فى الأمثلة السابقة.

والأمثلة السابقة تفيد أن الفعل «وهو إعداد المائدة» ثابت ومتفق عليه، وأن هذا الفعل منفي عن المسند إليه، بدلالة منطوق العبارة، وأنه ثابت لغير المسند إليه بدليل مفهوم العبارة، وهذا هو معنى التخصيص.

ويكون معنى التخصيص في المثال الأول: انتفاء القيام بهذا العمل «إعداد المائدة» عن محمد وثبوته لغيره.

ومعنى التخصيص في المثال الثاني «انتفاء القيام بهذا العمل، عن المتكلم وثبوته لغيره.

كقول المتنبي يمدح سيف الدولة:

وَمَا أَنَا أَسْقَمْتُ جِسْمِي به
وَما أَنا أَضْرَمْتُ في القلبِ نَارَا(١)

إذ المعنى أن هذا السقم الموجود، والضرم الثابت ما أنا جالبا لهما، فالقصد إلى نفي كونه فاعلا لهما لا إلى نفيهما(٢)

ومعنى التخصيص في المثال الثالث، نفي القيام بهذا العمل «إعداد المائدة» عن جنس الرجل، وثبوته لجنس آخر، ويكون هذا ردا على من زعم أن الذي أعدها رجلا لا امرأة، فيكون تخصيصا للجنس.

أو يكون المراد نفي إعدادها عن فرد واحد فيه، وثبوته لغيره، ويكون رداً على من زعم أن الذي أعدها، رجل واحد لا رجلان ولا أكثر، فيكون بذلك تخصيصا للوحدة.

---

(١) أضرمت بمعنى أشعلت، والمراد نار الحب
(٢) الإيضاح ٣٤

هذا ولا يعبر بمثل هذا الأسلوب إلا فى شىء ثبت حصوله ، ويراد نفى حصوله على المسند إليه خاصة .

ولما كان نفى الحكم عن المسند إليه فى هذه الأمثلة وماشاكلها بدلالة منطوق العبارة ، وثبوته لغيره بمفهومها ، لم يصح أن يقال : « ماأنا قلت هذا القول ولا غيرى ، لأن منطوق ولا غيرى ، يتناقض مع مفهوم العبارة المذكورة « ماأنا قلت ، لأن مفهومها ثبوته للغير ، ومعنى « لا غيرى » نفيه عنه ، وهما متناقضان .

يقول الإمام عبد القاهر : يصح لك أن تقول : ماقلت هذا ولا قاله أحد من الناس وماضربت زيدا ، ولا ضربه أحد سواى ، ولا يصح ذلك فى الوجه الآخر ، فلو قلت ماأنا قلت هذا ولا قاله أحد من الناس ، وماأنا ضربت زيدا ولا ضربه أحد سواى كان خلفا من القول(١)

هذا إذا وقع المسند إليه بعد أداة نفى فإذا لم يقع بعد نفى بمعنى أن يكون الكلام خاليا من النفى ، أو تأخر النفى عن المسند إليه ، جاز أن يراد من التركيب التخصيص أو التقوى تبعا لمقتضى الحال ، فإذا كان المتكلم فى مقام الرد على منازع فى الحكم كان الكلام مفيدا للتخصيص ، وإذا كان القصد مجرد الحكم على المسند إليه كان الكلام مفيدا للتقوى . . .

---

(١) دلائل الإعجاز ٨٤

٧ – عموم السلب ، أو سلب العموم .

والمراد بعموم السلب إفادة أن النفى شامل لجميع أفراد المسند إليه وذلك إذا كان المسند إليه من أدوات العموم مثل : كل، وجميع، وأن يتقدم على أداة النفى كقولك : كل طالب لم يقصر فى واجبه ، فالمثال المذكور يفيد أن التقصير منفى عن جميع الطلاب .

وقول النبى ﷺ عندما قال له ذو اليدين(١) أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله ؟ « كل ذلك لم يكن » أى لم يكن واحد منهما ، لا القصر ولا النسيان ، فالنبى ﷺ قد نفى الأمرين معا ، ويشهد لذلك أن النبى ﷺ لما قال ذلك ، قال له ذواليدين : بل بعض ذلك قد كان ، فقد أثبت ذو اليدين الحكم لبعض الأفراد ، ولا يكون ذلك إلا لأنه قد فهم أن النبى ﷺ قد نفاه عن جميع الأفراد

يقول الإمام عبد القاهر : ومن البين فى ذلك ماجاء فى حديث ذى اليدين قال للنبى صلى الله عليه وسلم « أقصرت الصلاة، أم نسيت يارسول الله ؟ فقال ﷺ كل ذلك لم يكن ، فقال ذو اليدين « بعض ذلك قد كان ، المعنى لا محالة على نفى الأمرين جميعا ، وعلى أنه عليه السلام أراد أنه لم يكن واحد منهما ، لا القصر ولا النسيان ، ولو قيل : لم يكن كل ذلك لكان المعنى أنه قد كان بعضه(٢)

وكقول أبى النجم :

قَدْ أصبحتْ أم الخيارِ تَدَّعِي ... على ذَنبًا كُلُّهُ لم أَصْنَع

---

(١) لقب بذى اليدين لطول كان فى يديه

(٢) دلائل الاعجاز : ١٨٧

برفع «كل» على الابتداء، والجملة بعده خبر.

يريد أبو النجم أن ينفي عن نفسه جميع الذنوب التى ادعتها عليه امرأته فهي متجنيه عليه؛ ترميه بما هو منه براء، والأسلوب بهذه الصورة يفيد «عموم السلب»:

يقول الامام عبد القاهر: إنه يقتضى نفى أن يكون قد صنع منه شيئا وأتى منه قليلا أو كثيرا، وأنك إذا قلت: كلهم لا يأتيك، وكل ذلك لا يكون، وكل هذا لا يحسن، كنت نفيت أن يأتيه واحد منهم، وأبيت أن يكون أو يحسن شيء مما أشرت إليه

ومما يشهد لك بذلك من الشعر قوله:

فَكَيْفَ وَكُلٌّ لَيْسَ يَعْدُو حِمَامَه
ولا لامرئٍ عما قضى اللهُ مُزَحْزَحُ(١)

المعنى على نفى أن يعدو أحد من الناس حمامه بلا شبهة، ولو قلت: فكيف وليس يعدو كل حمامه، فأخرت كلا، لأفسدت المعنى، وصرت كأنك تقول إن من الناس من يسلم من الحمام، ويبقى خالد الا يموت(٢)

فإن وقعت أداة العموم بعد النفى، أفاد الكلام ثبوت الحكم لبعض الأفراد دون بعض، ويسمى ذلك: سلب العموم

كقول المتنبي:

---

(١) الحمام بكسر الحاء قضاء الموت وقدره
(٢) دلائل الاعجاز ١٧٦

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى المرءُ يُدْرِكُهُ
تأتِي الرياحُ بِمَا لا تَشْتَهِي السُّفُنُ (١)

فقد قدم الشاعر أداة النفى « ما » على « كل » فأفاد أن ما يتمناه المرء يتحقق بعضه ولا يتحقق البعض الآخر ، فهو كالسفينة تزجيها الرياح إلى عكس ما يبتغي ربانها .

وكقول أبي العتاهية :

مَا كُلُّ رَأْيِ الفَتَى يَدْعُو إِلَى رَشَدٍ
إِذَا بَدَالكَ رأىٌ مُشْكِلٌ فَقِفِ

فقد قدم أبو العتاهية النفى « ما » على أداة العموم « كل » ليفيد أن رأى الفتى بعضه صواب ، وبعضه خطأ ، وينبغى للعاقل إذا أشكل عليه أمر أن يتريث حتى يستشير غيره ، فلا ندم من استشار .

وقولك « ما كل العلوم ذاكرت ، ولم أطالع كل الصحف » فيفيد نفى المذاكرة عن بعض العلوم وثبوتها للبعض الآخر ، ونفى الاطلاع على بعض الصحف ، وثبوته للبعض الآخر .

يقول الإمام عبد القاهر : ولو قدمت كلا فى هذا ، فقلت : كل ما يتمنى المرء لا يدركه ، وكل رأى الفتى لا يدعو إلى رشد ، لتغير المعنى ، ولصار بمنزلة أن يقال إن المرء لا يدرك شيئا مما يتمناه ، ولا يكون فى رأى الفتى ما يدعو إلى رشد بوجه من الوجوه(٢) .

---

(١) فى رواية « بما لا يشتهى السفن » بفتح السين وكسر الفاء ، وهو قائد السفينه .

(٢) دلائل الإعجاز ١٨٨

هذا وبناء على قاعدة «عموم السلب» و «سلب العموم» يجوز لك أن تقول «ما قرأت الكتاب كله ، لكن قرأت بعضه» فتفيد قراءة بعض الكتاب ، بعد أن نفيت قراءته كله .

ولا يجوز لك أن تقول «كل الكتاب لم أقرأه ، ولكن قرأت بعضه» وذلك لأنه يؤدى إلى التناقض ، فقد نفيت القراءة عن الكتاب كله ، فلم تقرأ منه شيئا ، ورجوعك بعد ذلك وقولك «ولكن قرأت بعضه» تناقض بين .

يقول الإمام عبد القاهر : واعلم أنه لما كان المعنى ، مع إعمال الفعل المنفى فى «كل» نحو : لم يأتنى القوم كلهم ، ولم أر القوم كلهم ، على أن الفعل قد كان من البعض ووقع على البعض ، قلت : لم يأتنى القوم كلهم ، ولكن أتانى بعضهم ، ولم أر القوم كلهم ، ولكن رأيت بعضهم ، فأثبت بعد ما نفيت .

ولا يكون ذلك مع رفع «كل» بالابتداء ، فلو قلت كلهم لم يأتنى ، ولكن أتانى بعضهم ، وكل ذلك لم يكن ولكن كان بعض ذلك لم يجز ، لأنه يؤدى إلى التناقض . وهو أن تقول : لم يأتنى واحد منهم ، ولكن أتانى بعضهم (١) .

هذا . ويرى بعض العلماء أن هذه القاعدة أكثرية لا كلية .

يقول صاحب المطول : لأنا نجده حيث لا يصلح أن يتعلق الفعل ببعض كقوله تعالى : «إن الله لا يحب كل مختال فخور» (٢) وقوله تعالى :

---

(١) دلائل الإعجاز ١٨٧

(٢) لقمان ١٨

« والله لا يحب كل كفار أثيم »(١) وقوله تعالى : « ولا تطع كل حلاف مهين »(٢) فالحق أن هذا الحكم أكثرى لا كلى(٣) .

كما يقول ابن يعقوب : الذوق شاهد صدق أيضا فى ذلك ، ولكن الحق كما قيل ، إن الحكم أكثرى لا كلى ، فقد وردت كل التى فى حيز النفى لشمول النفى كقوله تعالى « والله لا يحب كل مختال فخور »(٤) ، « والله لا يحب كل كفار أثيم » « ولا تطع كل حلاف مهين فإن المراد قطعا نفى محبة كل كفار ، وكل مختال لا نفى محبة البعض ، وإثباتها للبعض ، وكذا المراد فى « لا تطع كل حلاف » نهى عن إطاعة كل فرد من أفراد الحلاف المهين ، لا نهى عن إطاعة البعض وإثبات الإطاعه للبعض(٥) .

وقد أجاب بعض البلاغيين عن الإمام عبد القاهرة

يقول الشيخ الدسوقى : وقد يقال إن كلام الشيخ عبد القاهر مبنى على أصل الوضع وإفادة هذه الآيات لشمول النفى ليس من أصل الوضع ، وإنما هو بواسطة القرائن والأدله الخارجية ، وهى تحريم الاختيال ، وتحريم الكفر ، وتحريم إطاعة الحلاف المهين ، فالآيات مصروفة عن الظاهر بهذه الأدلة الخارجية(٦) .

---

(١) البقرة ٢٧٦ (٢) القلم ١٠
(٣) المطول ١٢٥ (٤) الحديد ٢٣
(٥) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص حـ١ صـ٤٤٢
(٦) حاشية الدسوقى ضمن شرح حـ ١ صـ٤٤١

تعريف المسند إليه

المسند إليه هو المحكوم عليه ، والأصل فيه أن يكون معرفة ليكون الحكم عليه مفيداً ، ومن ثم تحققه أن يكون معلوما ، والتعيين قد يكون بذات اللفظ كما فى التعريف بالعلمية ، وإما بقرينة التكلم أو الخطاب أو الغيبة . كما فى التعريف بالضمائر ، وإما بقرينه إشارة حسية ، كما فى التعريف بالإشارة ، وإما بنسبة معهودة ، كما فى التعريف بالأسماء الموصولة ، وإما بحرف ، وهو المعرف « بأل » وإما بإضافة معنوية ، وهو المضاف إلى واحد مما سبق ذكره .

وكل نوع من هذه الأنواع قد يقتضية المقام ، ويستدعيه الحال .

التعريف بالإضمار :

يؤتى بالمسند إليه ضميرا لأغراض بلاغية منها :

١ — كون الحديث فى مقام التكلم كقول النبى ﷺ : « أنا النبى لا كذب ، انا ابن عبد المطلب » .

وقول بشار :

أَنَا المُرَعَّثُ لَا أَخْفَى عَلَى أَحَدٍ
ذَرَّتْ بِى الشمسُ لِلقَاصِى وللدَّانِى (١)

يصف الشاعر نفسه بأنه معروف مشهور عند كافة الناس .

---

(١) المرعث لقب بشار لرعثة كانت له فى صغره ، وهى القرط ، يعلق بشحمة الأذن ، و « ذرت بى الشمس » بمعنى طلعت ، كناية عن شهرته ، وأنه ذائع الصيت .

وأكثر ما يستعمل ضمير التكلم فى مقام الفخر والاعتداد بالنفس ، كقول المتنبي :

أَنَا الَّذِي نَظَرَ الأَعْمَى إِلَى أَدَبِي
وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمُ

يريد : أنا الذى شاع ، أدبى ، واستبان موضعى ، فثبت ذلك فى العقول ، وتمكن فى القلوب ، ورآه من لا يبصره ، وأسمعت كلمات من لا يسمع(١).

وقول سحيم بن وثيل :

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَا مَتَى أَضَعِ العِمَامَةَ تَعْرِفُونِي (٢)

يصف الشاعر نفسه بالشهرة ووضوح الأمر ، وأنه يركب الصعاب لشجاعته وقوة بأسه وعلو همته .

٢ — أو لكون الحديث فى مقام الخطاب كقول أمامـــة الخثعمية تخاطب ابن الدمينة :

وأنتَ الذى أخلفتنى ما وعـــدتَنِي
وأشْمَتَّ بِي من كَانَ فيك يَلُومُ

تريد : أنت الذى أخلفت ما وعدت بالوفاء به ، ونقضت ما عاهدتنى

---

(١) كان المعرى إذا أنشد هذا البيت : أنا الأعمى — ديوان المتنبي شرح العكبرى .

(٢) الثنايا : جمع ثنيه ، وهى الطريق فى أعلى الجبل يصعب الارتقاء إليه .

وقد تمثل بهذا البيت الحجاج بن يوسف على منبر الكوفة حين دخلها أميرا انظر — معاهد التنصيص حـ١ — ٢٣٩

بتعليه وأشمت بى من كان يلومنى فى حبك ، لأنك لم تقم بما توجبه المحبة من صدق الوفاء وحسن المودة ».

هذا . وأصل الخطاب أن يكون لمعين واحداً كان أو أكثر ، وقد يترك إلى غير معين بأن يراد مطلق مخاطب كقولك « فلان لئيم إن أكرمته أهانك وإن أحسنت إليه أساء إليك » فلا تريد مخاطبا بعينه ، بل تريد « إن أكرم أو أحسن إليه » فتخرجه فى صورة الخطاب ليفيد العموم ، أى سوء معاملته غير مختص بواحد دون آخر .

يقول صاحب الإيضاح كقوله تعالى « ولو ترى إذا المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم »(١) أخرج فى صورة الخطاب لما أريد العموم ، للقصد إلى تفظيع حالهم ، وأنها تناهت فى الظهور حتى امتنع خفاؤها ، فلا تختص بها رؤية راء بل كل من يتأتى منه الرؤية داخل فى هذا الخطاب(٢).

٣ — أو لكون الحديث فى مقام « الغيبة » ، كقول القاسم بن حنبل المرى :

مِنَ البِيضِ الوجوهِ بَنِي سِنَانٍ ... لَوَ أَنَّكَ تَسْتَضِىءُ بِهِمْ أَضاءُوا
هُمُ حَلُّوا مِنَ الشَّرَفِ المعلَّى ... ومن حَسَبِ العشيرةِ حيث شاءوا(٣)

يريد : هم من القوم الغر ، ذوى الأحساب النقية البريئة مما يشينها لو أنك استضأت بنور وجوههم فى ظلمة الليل ، لانقلب نهارا ، وقد حلوا

(١) السجدة ١٢

(٢) الإيضاح ٢٣

(٣) من البيض الوجوه : خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم .
والمراد ببياض الوجوه : نقاء حسبهم وانتفاء العيب والعار عنهم والمعلى : يريد المرتفع إلى أبعد الغايات .

من الشرف العريق مكانا عليا وذلك لحسن سيرتهم ونقاء سريرتهم ، كما نزلوا حيث اختاروا وأحبوا من حسب العشيرة المتوارث .

– وكما ترى – فقد أتى بالمسند إليه ضمير غيبة لأن المقام له .

هذا . وضمير الغيبة لابد من تقدم ذكره ، إما لفظا كقوله تعالى « فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين »(١) وقولك : تفوق أخوك فى الامتحان وهو فخور بتفوقه .

وإما معنى كقوله تعالى : « اعدلوا هو أقرب للتقوى »(٢) فإن فى قوله تعالى : « اعدلوا » معنى العدل ، وقوله تعالى : « وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم »(٣) فإن فى قوله تعالى : «ارجعوا» معنى الرجوع .

وإما لدلالة قرينة حال تدل على مرجع الضمير ، كقوله تعالى : « فلهن ثلثا ما ترك »(٤) أى الميت لأن الكلام فى الإرث .

يقول ابن يعقوب المغربى « أو بأن توجد قرينة دالة عليه نحو قوله تعالى « حتى توارت بالحجاب »(٥) فإن قرينة ذكر العشى والتوارى بالحجاب مع سياق الكلام الدال على فوات وقت الصلاة تدل على أن المعاد الشمس(٦) .

---

(١) الأعراف ٨٧
(٢) المائدة ٨
(٣) النور ٢٨
(٤) النساء ١١
(٥) ص ٣٢
(٦) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ١ ص ٢٨٨

التعريف بالعلمية :

يؤتى بالمسند إليه علما لأغراض بلاغية منها :

١ — أن يقصد إحضار مدلوله بعينه وشخصه فى ذهن السامع باسمه الخاص به بحيث يكون متميزا عن جميع ماعداه .

كقوله تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل »(١) فقد أتى بالمسند إليه علما قصدا إلى إحضار مسماه بعينه وشخصه لئلا يلتبس بغيره .

وقول مالك بن عويمر من قصيدة له فى رثاء أبيه :

أَبُو مَالِكٍ قاصرٌ فَقْـرَهُ على نَفْسِهِ ومُشِيعٌ غِنَاه(٢)

يصف الشاعر أباه بكرم الطبع ، وحميد السجايا ، ونبل الخلال ، وأنه إذا أصابته فاقة ، ورقت حاله ، حبس فقره على نفسه لئلا يشعر به أحد ، وأنه إذا أيسر واتسعت ذات يده عم خيره الناس .

— وكما ترى — فقد عبر بصيغة العلم « الكنية » لإحضاره بشخصه وعينه .

٢ — أن يقصد التبرك بذكر إسمه ، كقولك: الله أكرمنى . فى جواب هل أكرمك الله .

٣ — التلذذ بذكر إسمه ، كقول الشاعر :

بالله ياظبيات القاع قُلْنَ لَنَا لَيْلاَىَ مِنْكُنَّ أَمْ لَيْلَى مِن البَشَرِ

---

(١) البقرة — ١٢٧

(٢) قصر فقره على نفسه : لا يسأل أحداً وإشاعة غناه : يعطى كل الناس .

فمقتضى سياق الحديث أن يقول «أم هى» لأن المقام للضمير لتقدم المرجع بيد أنه أورده علما ليتلذذ بذكره .

٤ - تعظيمه أو إهانته، كما فى الكنى والألقاب المحمودة أو المذمومة كقولك : جاء أبو الفضل ، وخرج أبو الجهل، وقدم علينا عز الدين وأقبلت نور الهدى .

٥ - التفاؤل والتطير ، كقولك : سعد فى دارك ، والسفاح فى دار صديقك وهناك أغراض أخرى يدركها صاحب الذوق السليم .

التعريف بالإشارة :

يؤتى بالمسند إليه اسم إشارة لأغراض بلاغية منها :

١ - تمييز المسند إليه أكمل تمييز، بإحضاره فى ذهن السامع بوساطة الإشارة حسا لكون المقام مقام مدح أو نحوه، كقول ابن الرومى :

هَـذا أَبُو الصَّقْرِ فَرْداً فِي مَحَاسِنِه
مِنْ نَسْلِ شَيْبَانَ بَيْنَ الضَّالِ والسَّلَمِ(١)

يريد أنه يتجمل بحسن الخلق والخلق ، وأنه سليل قوم اشتهروا بالكرم والإباء .

- وكما ترى - فقد جاء المسند إليه اسم إشارة قصداً إلى تمييزه أكمل تمييز اقتضاه مقام المدح .

يقول ابن يعقوب المغربى : «فقوله هذا إشارة إلى تمييز أبى الصقر أكمل تمييز ، ليكون مدحه فى الأذهان كالنار على علم ، وظهر نعته عند

---

(١) أبو الصقر : كنية الممدوح وزير المعتمد، وشيبان : اسم قبيلة، والضال: جمع ضالة: شجر السدر ، والسلم : جمع سلمة : شجر ذو شوك من شجر البادية .

الناس ، كظهور البدر بلا غيم ولا خسوف ، وإنما أفاد اسم الإشارة أكمل تمييز لتنزله فى المحسوس الذى أصله أن يستعمل فيه منزلة وضع اليد »(١) .

وقول الحطيئة :

أولئكَ قومٌ إنْ بَنَوْا أَحْسَنوا البُنَى
وإن عاهدُوا أوفُوا وإن عَقدُوا شَدُّوا(٢)

يريد الشاعر : أن قومه أشراف أمجاد ، إن طلبوا مجداً حققوه ، وأنهم أوفياء العهود ، لا يغدرون ، وأقوياء العزيمة لا يتقاعسون .

وقد عبر باسم الإشارة لتمييز المسند إليه تمييزاً كاملا .

٢ — التعريض بغباوة السامع ، وأنه لا يميز الأشياء إلا بالإشارة الحسية . كقول الفرزدق يهجوا جريراً :

أولئـــكَ آبائِى فجئنى بِمثلِهم ... إذَا جَمَعْتنَا ياجَرِيرُ المجامعُ

فتعريف المسند إليه باسم الإشارة « أولئك » تعريض بغباوة جرير ، وكأنه لا يعلم آباء الفرزدق إلا إذا رآهم رأى العين .

يقول ابن يعقوب : فى قوله « أولئك آبائى تعريض بغباوة جرير ، وأنه لا يدرك غير المحسوس بخلاف مالو قال فلان وفلان آبائى ، وقوله « فجئنى بمثلهم » أمر تعجيز ، أى لا تقدر أن تأتى بمثلهم فى مناقبهم إذا جمعتنا مجامع الافتخار والإنشاد يوماً ما(٣) .

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ١ ص ٣١٤

(٢) بنوا : يريد سعوا فى تحصيل المكارم والمآثر . والبنى بضم الباء وكسرها جمع بنية بضم الباء أو كسرها ، مايبنى من المكارم ، عقدوا : أبرموا أمراً من أمورهم .

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ١ ص ٣١٥

٣ — تعظيم المسند إليه بالقرب ، تنزيلا لقربه من النفس منزلة قرب المسافة كقوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم »(١) .

فقد جاء المسند إليه « اسم إشارة » للقريب ، للدلالة على تعظيمه ، فالشيء المحبوب يكون عادة مخالطا للنفس ، حاضرا فى الذهن ، لايغيب عن الخاطر .

٤ — تحقير المسند إليه بالقرب ، تنزيلا لدنو منزلته منزلة قرب المسافة . كقوله تعالى : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب »(٢) .

فقد جاء المسند إليه « اسم إشارة » للقريب ، لتحقيره ، لأن الحقير عادة لايمتنع عن الناس ، مبتذلا ، واقعا بين أيديهم وأرجلهم ، وهكذا شأن الدنيا فى نظر من يعرف حقيقة الموت .

٥ — تعظيم المسند إليه بالبعد ، تنزيلا لبعد درجته وعلو منزلته منزلة بعد المسافة ، كقوله تعالى : « ذلك الكتاب لاريب فيه »(٣) فقد جاء المسند إليه اسم إشارة للبعيد للدلالة على تعظيم شأن المشار إليه ، وأنه ذو الكمال ، وقد فاق جميع الكتب المنزلة .

يقول ابن يعقوب : إن لفظ البعد بنفسه يفيد التعظيم ، كما يقال هذا أمر بعيد عن فلان ، أى عزيز التناول بعيد الإدراك .. فكذا اسم الإشارة الدال فى الأصل عن البعد الحسى ، نحو قوله تعالى « ذلك الكتاب » أى ذلك الرفيع المنزلة فى البلاغة ، العزيز المرتبة فى علومه وأسلوبه ، هو الكتاب الكامل الذى يستحق أن يسمى كتابا : حتى كأنه لا كتاب سواه ، وهذا فى شأن تعظيم المشار إليه(٤) .

---

(١) الإسراء ٩ (٢) العنكبوت ٦٤
(٣) البقرة ٢
(٤) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ج ١ ص ٣١٧

٦ ــ تحقير المسند إليه بالبعد تنزيلا لبعده عن الحضور فى النفس، منزلة بعد المسافة كقوله تعالى « فذلك الذى يدع اليتيم »(١)

يقول ابن يعقوب : أو تحقيره بالبعد، كما أن لفظ البعد يفيد ذلك، فيقال هذا بعيد عن هذه الحضرة لتنزهها عن حقارته ، وذلك نحو قوله : « ذلك اللعين فعل كذا » أى ذلك الحقير البعيد لحقارته عن عز الخطاب والحضرة فعل كذا »(٢)

٧ ــ التنبيه على أن المشار إليه ، المعقب بأوصاف ، جدير من أجل تلك الأوصاف بما يذكر بعد اسم الإشارة، كقوله تعالى: « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وماأنزل من قبلك وبالاخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون »(٣)

فالمشار إليه فى الاية الكريمة « بأولئك هم المتقون » وقد ذكرت عقيبهم أوصاف ، هى الإيمان بالغيب ، وإقامه الصلاة ، والانفاق من الرزق والإيمان بما أنزل ، والإيقان بالاخرة ، ثم أشير إليهم « بأولئك » مع أن المقام للضمير للتنبيه على أن المشار إليهم جديرون من أجل تلك الأوصاف بما ذكر بعد اسم الإشارة من الفوز فى الدنيا والاخرة .

وكقول حاتم الطائى :

وَلِلهِ صعلوكٌ يُسَاوِرُ هَمَّهُ
وَيَمْضِى على الأحداثِ والدهرِ مُقْدِمَا(٤)

---

(١) الماعون ٢

(٢) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص حـ ١ ٣١٨

(٣) البقرة ٢ - ٥

(٤) لله فلان تركيب يفيد التعجب والتعظيم ، والصعلوك الفقير ،

فتى طلباتٍ لايرى الخمصَ ترْحَةً
ولا شبعةً إن نالها عَــدَّ مغنما(١)

إذا مارأى يوما مكارمَ أعرضت
تيمّمَ كبراهنَّ ثمتَ صممـــا(٢)

ترى رمحــه ونبلَهُ ومجنــه
وذا شُطَبٍ عَضْبَ الضريبةِ مِخْذما(٣)

وأحناءَ سَرْجٍ قاترٍ ولجامَـــهُ
عَتادَ أخِـــى هيجا وَطِرْفًا مُسَوَّما(٤)

= يساور : يواثب ويغالب ، والهم مايشغل بال الإنسان من أمل ونحوه والأحداث النوازل .

(١) الطلبات جمع طلبه ، وهى مايطلبه الإنسان ، والخمص : الجوع ، والترحة : الشقاء والفقر ، والمغنم الغنيمه

(٢) أعرضت : ظهرت وبرزت ، وتيمم : قصد ، وثمت : ثم ، وصمم: مضى فى أمره دون تردد

(٣) الرمح عود طويل فى رأسه حربه ، والنبل : واحدته : نبله وهى السهم الذى يرمى بالقوس ، والمجن : الترس ، والشطب : طرائق وخطوط فى متن السيف واحدتها شطبة . والعضب : القاطع . والضريبة من السيف: حده ، والمخذم : القاطع .

(٤) الاحناء واحدها : حنو ، ويطلق على كل مافيه اعوجاج ، وعلى قربوس السرج المقدم والمؤخر ، والسرج القاتر : الجيد ، والعتاد : ماتعده لأمر من الأمور ، والهيجا : الحرب ، مقصور بعدالمد ، والطرف : الجواد الأصيل والمسوم المعلم لشهرته .

فذلِكَ إِنْ يَهلِكْ فَحُسْنَى ثَنَاؤُه
وَإِنْ عَاشَ لَمْ يقعدْ ضَعِيفًا مُذَمَّمَا(١)

عدد الشاعر لهذا الصعلوك خصالا فاضلة، فذكر أنه صادق العزيمة يواجه الأحداث الجسام بلا خوف ولا مبالاة فى سبيل حصوله على مايبتغيه من المجد، وهو يتطلع لمعالى الأمور، ومن ثم فهو يتحلى بأكرم الصفات وأنبل الخلال، فهو شجاع يستهدف لصدور الرماح، وهو مثخن بالجراح:

ثم أشار إليه « بذلك » ليتنبه به إلى أن المشار إليه جدير من أجل تلك الصفات بما ذكر بعد اسم الإشارة، من طيب الذكرى إذا مات، وكسب المحامد إذا عاش، فهو سعيد فى دنياه وفى أخراه

هذا ووجه التنبيه على ماذكر، أن اسم الإشارة موضوع للدلالة على المشار إليه، والمشار إليه فى الأمثلة المذكورة هو الذات مع مراعاة الأوصاف المعقب بها، لأن كمال التميز الدال عليه اسم الإشارة، إنما يكون بمراعاة هذه الأوصاف،

أما الضمير فموضوع للذات المجردة من أى اعتبار، فلا يفيد حينئذ مراعاة هذه الأوصاف، وإن كانت موجودة(٢)

يقول ابن يعقوب: إن الذوق شاهد صدق على أنه إذا قيل: الذى يحسن للسائل، ويغيث الملهوف، ويرحم الضعيف. ويقيم حق الضيف، ويعين على النوازل، ويوجد فى الشدائد، ذلك هو أهل التعظيم عند الورى

---

(١) الحسنى مصدر كالبشرى، أو اسم للإحسان.
(٢) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ١ ٣١٩

والأحق أن يتلقى بالقبول إذا يرى ، كان ذلك دالا على أن استحقاقه للتعظيم والقبول ، من أجل تلك الأوصاف ، لأن تعليق الحكم بوصف مناسب ، كما أنبأ عنه هنا اسم الإشارة إلى الموصوف يشعر بعليته ثم ينشأ عن ذلك غرض آخر ، وهو الترغيب فى تحصيل تلك الأوصاف(١)

كما يقول الشيخ الدسوقى : أورد المسند إليه اسم إشارة ، مع أن المحل للضمير لأجل تنبيه السامع على أن المشار إليه حقيق بالحكم المذكور بعد اسم الإشارة من أجل مااتصف به من الصفات قبلها(٢)

وهناك أغراض أخرى يدركها اللبيب من فحوى الكلام .

التعريف بالموصولية :

يؤتى بالمسند إليه اسم موصول ، لأغراض بلاغية منها :

١ — عدم علم المخاطب بالأحوال الخاصة بالمسند إليه سوى الصلة ، كقولك : « الذى جلس معنا بالأمس رجل عالم ، فقد جاء بالمسند إليه معرفا باسم الموصول « الذى » لنعرفه بواسطة صلته .

وقوله تعالى : « وقال الذى آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد »(٣)

فقد ذكرت الآية الكريمة أن آل فرعون ، أرادوا الفتك بموسى عليه السلام فقام من بينهم رجل يكتم إيمانه ، وطلب منهم الكف عن قتله ، واتباع طريق الهداية والرشاد ، فالمخاطبون بالقرآن الكريم لايعرفون عنه سوى أنه مؤمن ، ومن ثم فقد عبر عنه بالصفة المعروفة فيه

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ١ ٣١٩

(٢) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص جـ ١ ٣١٩

(٣) غافر ٣٨

٢ — التفخيم والتهويل . كقوله تعالى « فغشيهم من أليم ماغشيهم »(١) فالآية الكريمة تفيد أنه قد غمرهم ماء غزير لا يحده وصف ، ولا يدركه وهم .

ويقول ابن يعقوب : فإن فى هذا الإبهام الكائن فى « ماغشيهم » من التفخيم والتهويل مالا يخفى ، لما فيه من الإيماء إلى أن تفصيله تقصر عنه العبارة(٢)

٣ — تقرير الغرض المسوق له الكلام . كقوله تعالى « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه »(٣) فالآية الكريمة مسوقة لتقرير نزاهة يوسف عليه السلام ، وليس فى « امرأة العزيز » أو فى « زليخا » مايشير إشارة قوية إلى هذه النزاهة ، أما ذكر الصلة « التى هو فى بيتها » فيؤكد هذه النزاهة ، لأن يوسف فى بيتها ، متمكن منها ، وقد ابتدأته ، وكل هذا مما يمهد للخطيئة فإذا استعصم وأبى ، كان ذلك دليلا على قوة إرادته وعظم نفسه وحسن خلقه .

يقول صاحب المطول : الكلام مسوق لنزاهة يوسف ، وطهارة ذيله والمذكور أدل عليه من امرأة العزيز ، أو زليخا ، لأن كونه فى بيتها ، ومولى لها ، يوجب قوة تمكنها من المراودة ونيل المراد ، فإباؤه عنها ، وعدم الانقياد لها يكون غاية فى النزاهة عن الفحشاء(٤)

هذا وقد يكون التعبير هنا باسم الموصول لاستهجان التصريح بالاسم .

---

(١) طه ٧٨

(٢) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ج ١ ٣٠٦

(٣) يوسف ٢٣

(٤) المطول ٧٤

لقبح الفعل المنسوب إليها ، أو لأن العادة جرت باستهجان التصريح بأسماء النساء ، أو لأن السمع لا يستسيغ لفظ «زليخا» .

يقول الشيخ الدسوقى : لو عبر «بزليخا» لكان مستقبحا ، لأنه يقبح التصريح باسم المرأة ، أو لكون السمع يمج لفظ «زليخا» لكونه مركبا من حروف يستقبح السمع اجتماعها(١) .

٤ — استهجان التصريح بذكر اسم المسند إليه . إذا كان مشعرا بما تشمئز منه النفس كقولك «الذى يخرج من أحد السبيلين ناقض للوضوء» .

يقول ابن يعقوب : «استقباح التصريح بالاسم إما من جهة تركيبه من حروف يستقبح اجتماعها ، أو لإشعاره فى أصله بمعنى تقع النفرة منه لاستقذاره عرفا(٢) .

٥ — تنبيه المخاطب على خطأ وقع منه أو من غيره .

فالأول كقول عبده بن الطبيب من قصيدة يعظ فيها بنيه :

إِنَّ الذين تُرَوْنَهُم إِخْوَانَكُمْ
يَشْفِي غَلِيلَ صُدُورِهِم أَنْ تُصْرَعُوا(٣)

يريد : يا بنى إن القوم الذين تظنونهم إخوانكم . وتعتمدون عليهم فى الشدائد بما ظننتم يشفى ما فى صدورهم من غليل العداوة وحرقتها أن تصرعوا وتصابوا بالحوادث فإياكم واستنامتهم والاعتماد عليهم .

---

(١) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ج ١ ٣٠٦

(٢) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ج١ ٣٠٤

(٣) ترونهم : تظنونهم ، تصرعوا : تهلكوا وتصابوا

فالتعبير بالموصول لبيان خطئهم فى هذا الظن . وفيه من التنبيه ماليس فى قولك إن فلانا وفلانا وفلانا يضمرون لكم السوء .

يقول ابن يعقوب : لا يخفى ما فى هذا من التنبيه على خطئهم فى هذا الظن ، بخلاف ما لو قال إن القوم الفلانيين يشفى غليل صدورهم أن تصرعوا(١) .

والثانى : ما فيه تنبيه على خطأ غير المخاطب كقولك : إن الذى يظنه على مخلصا له يكيد له .

٦ ـ الإيماء إلى وجه بناء الخبر ، بمعنى أن يكون فى صلة الموصول ما يدل على الخبر كقوله تعالى : إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ،(٢) .

فإن الاستكبار الذى دلت عليه الصلة أوحى بأن الخبر من جنس العقاب .

يقول ابن يعقوب : فنى مضمون الصلة الذى هو الاستكبار عن عبادة الرب إيماء إلى أن الخبر المبنى على الموصول وصلته أمر من جنس الإذلال والعقوبه وهو قوله تعالى سيدخلون جهنم داخرين أى صاغرين(٣) .

هذا : وربما جعل الإيماء إلى وجه بناء الخبر وسيلة إلى التعريض بتعظيم شأن الخبر كقول الفرزدق :

إِنَّ الذِى سَمَكَ السماءَ بنى لَنا ... بَيْتاً دعائمُه أعزُّ وأطولُ(٤)

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ١ ـ ٣٠٧

(٢) غافر ٦٠

(٣) مواهب الفتاح| شروح التلخيص جـ١ ـ ٣٠٨

(٤) سمك السماء : رفعها والمراد بالبيت : بيت العز والشرف

فالشاعر يفتخر بأنه من بيت شرف ومجد وعز.

يقول بهاء الدين السبكى: لاشك أن الموصول كان ذريعة إلى ذكر صلته وذكرها ذريعة إلى تعظيم الخبر الذى هو بناء البيت، وذلك تدركه بالذوق، فإن سمك السماء فيه تعريض بأن المسند إليه من شأنه أنه رفع السماء فهو قادر على البناء المخبر به(١).

وربما جعل الإيماء إلى نوع بناء الخبر وسيلة إلى التعريض بتحقيره كقولك: «إن الذى لايحسن قرض الشعر أنشأ قصيدة» فالمقصود التوسل بهذا الإيماء إلى التعريض بتحقير شأن القصيدة، وأنها من النوع المبتذل لأنها صنيع من لايحسن صياغة الشعر.

وقد يكون الإيماء إلى نوع الخبر وسيلة إلى تحقيق الخبر وتثبيته كقول عبده بن الطبيب:

إِنَّ الَّتِي ضَرَبَتْ بَيْتاً مُهَاجِرَةً
بِكُوفَةِ الجُنْدِ غَالَتْ وُدَّهَا غُولُ(٢)

فالشاعر يريد أن يقول: إن التى نزحت إلى الكوفه، واتخذت بها موطن إقامة دائمة، قد انقطعت حبال ودها، وانحلت أواصر العلاقة بينى وبينها.

---

(١) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ج ١ — ٣١٠

(٢) كوفة الجند: مدينه الكوفة. وغالت: أكلت، والغول: حيوان خرافى وقد يطلق على الداهية، وهنا بمعنى المهلك: أى اغتالت ودها الغوائل، وضرب البيت فى الأصل أن تشد حباله بالأوتاد وهو كناية عن الإقامة الدائمة، وودها: محبتها ووجه إدخال التاء فى الفعل أن الغول مؤنث سماعا وإن كان بمعنى المهلك حاشية الدسوقى ٣١١

فني ضرب البيت بالكوفة ، والهجرة إليها إيماء إلى أن طريق بناء الخبر من جنس زوال المحبة ، وهو مع هذا يحقق زوال المودة ويقره حتى كأنه دليل عليه .

٧ — تشويق المخاطب إلى الخبر ليتمكن فى ذهنه ، وذلك إذا كانت الصلة تتضمن أمرا غريبا ، كقول أبي العلاء المعرى :

وَالَّذِي حَارَتِ البَرِيَّةُ فِيهِ حَيَوَانٌ مستحدثٌ من جَمَادِ

فالصلة «حارت البرية فيه» أمر غريب من شأنه أن يشوق المخاطب إلى معرفة السبب فى هذه الحيرة ، فإذا وصل إلى الخبر وعرف أنه الحيوان تمكن الخبر فى نفسه لمجيئه بعد تمهيد وتشويق .

يقول ابن يعقوب : فكون المسند إليه موصوفا بحيرة البرية فيه يوجب الاشتياق إلى أن الخبر عنه ما هو ، وقوله « حيوان مستحدث من جماد خبر مسوق بعد التشويق إليه فيتمكن فى ذهن السامع»(١) .

كما يقول صاحب المطول: يعنى تحيرت البرية فى المعاد الجسمانى والنشور الذى بنفسانى ، وفى أن أبدان الأموات كيف تحيي من الرفات .. يعنى بعضهم يقول بالمعاد وبعضهم لا يقول به(٢) .

وغير ذلك من الأغراض التى يدركها اللبيب .

التعريف باللام .

اللام من شأنها أنها تشير إلى شيء فى الأسلوب ذكر قبلها على صورة ما ، فتربط الأسلوب بعضه ببعض ، وتجعله ينبض بالحياة ، كما توقظ ذهن المخاطب وتقوى همته .

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ١ — ٣٩٢

(٢) المطول ١٠٧

هذا. ويؤتى بالمسند إليه معرفا بأل للغرضين الآتيين :

ـ الإشارة بها إلى معهود خارجا ، وتسمى اللام حينئذ : لام العهد الخارجى وهى التى يكون مدخولها معينا فى الخارج.

وتنقسم باعتبار مدخولها إلى ثلاثة أقسام :

(أ) لام العهد الصريحى ، وهى التى يتقدم لمدخولها ذكر صريح كقوله تعالى :

« الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى»(١) فكل من لفظى « المصباح ، والزجاجة» مسند إليه ، وقد جاء كل منهما معرفا «بأل» للإشارة بهما إلى معهود خارجا عهدا صريحا لتقدم ذكره صراحة فى قوله تعالى : « فيها مصباح» وقوله تعالى «فى زجاجة» .

(ب) لام العهد الخارجى الكنائى : وهى التى يتقدم لمدخولها ذكر كنائى ، كما فى قوله تعالى حكاية عن أم مريم: «رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى ، إنك أنت السميع العليم ، فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى»(٢)

فلفظ «الذكر» مسند إليه ، وقد عرف «باللام» للإشارة إلى معهود خارجا عهدا كنائيا لتقدم ذكره كناية فى قوله تعالى: «رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا» فلفظ « ما» مبهم» يعم بحسب وضعه الذكور والإناث، بين أن التحرير ، وهو أن يعتق الولد ليكون وقفا على خدمة بيت المقدس كان خاصا بالذكور دون الإناث(٣).

---

(١) النور ٣٥ (٢) آل عمران ٣٥،٣٦

(٣) أنظر مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ١ ص ٣٢٢

(ج) لام العهد الخارجى العلمى ، وهى التى لا يتقدم لمدخولها ذكر مطلقا ، لا صريحا ولا كناية ، ولكن للمخاطب علم به . سواء كان حاضرا فى المجلس كقولك أبدع الخطيب فى خطبته ، فى شأن رجل حاضر ، أو كان غائبا عنه كقولك فى شأن رجل غائب «لقد أحسن الشاعر فى عرض قصيدته» فإتيان المسند إليه فى القسمين معرفا «بأل» للإشارة بها إلى معهود فى الخارج عهدا علميا لتقدم علم المخاطب به .

٢ — الإشارة بها إلى الحقيقة ، وهى التى يكون مدخولها مرادا به الحقيقة نفسها ، دون ما يندرج تحتها من أفراد ، كقولك : أهلك الناس الدينار والدرهم فالمقصود حقيقة الدينار وحقيقة الدرهم ، وقول أبى العلاء المعرى :

والخِلُّ كالماءِ يُبدِى لى ضَمَائِرَهُ مع الصفاءِ ويُخْفِيهَا مع الكَدرِ (١)

يريد أن الصديق يبدى لك ما يضمره إذا اصفا لك ، أما إذا جفاك فإنك لا ترى منه شيئا ، فهو كالماء تستشف ما تحته عند صفائه ولا ترى ما تحته عند كدره ، فالمراد هنا حقيقة الماء والخل ، وليس المراد خلا بعينه أو ماء بعينه .

أو يكون المراد فردا مبهما من أفراد الحقيقة إذا قامت القرينة على ذلك كقوله تعالى : «وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون» (٢).

فقد عرف المسند إليه «بأل» للإشارة بها إلى فرد غير معين من أفراد حقيقة الذئب وجنسه .

---

(١) الخل : الصديق ، ضمائره ما يضمره من المودة وغيرها ، وليس المراد خل معهود معلوم ، ولكن المراد جنس الخل .

(٢) يوسف ١٣

وقول عميرة بن جابر الحنفي :

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي فَمَضَيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ لَا يَعْنِينِي(١)

يريد الشاعر : أنه كريم الخلق ، حميد السجايا ، واسع الصدر ، لا تنال منه سقطة اللئيم ، ولا سفاهة الجاهل ، وهو حين يسمع من اللئيم مايشينه ينصرف عنه غير عابئ محدثا نفسه بأنه لا يعنيه بسبه .

فالمراد «باللئيم» فرد غير معين .

أو يكون المراد بها جميع أفراد الحقيقة وتسمى « لام الاستغراق » لأن المقصود بها استغراق جميع الأفراد ، وهي نوعان :

(أ) لام الاستغراق الحقيقي ، وهي التي يكون مدخولها مرادا به كل فرد مما يتناوله اللفظ وضعا ، كقولك «الغيب يعلمه الله» فالمقصود جميع الأفراد التي يتناولها لفظ «الغيب» بحسب الوضع ، أي كل أفراد الغيب لا تخفى على الله والقرينة الدالة على ذلك استحالة أن يقتصر علمه تعالى على بعض الغيوب دون بعض ،

(ب) ولام الاستغراق العرفي ، وهي التي يكون مدخولها مرادا به كل فرد يتناوله اللفظ عرفا .

يقول الخطيب القزويني : « كقولنا، جمع الأمير الصاغة ، إذا جمع صاغة بلده أو أطراف مملكته فحسب ، لا صاغة الدنيا(٢).

---

(١) ثمت : حرف عطف لحقها تاء التأنيث ، أمر : مضارع بمعنى الماضي لاستحضار تلك الصورة العجيبة عنده ، وعدل إلى الماضي في قوله «فضيت» و «قلت» للدلالة على التحقق .

(٢) الإيضاح ٢٧

كما يقول الشيخ الدسوقى : إن الصاغة بحسب حقيقتها شاملة لجميع صاغة الدنيا لكن القرائن خصتها بصاغة بلد الأمير ، أو صاغه مملكته ، إذ يعلم العقل أن الأمير لا يقدر على جميع صاغة الدنيا ، فتعين أن المراد بها الصاغه الموجودة فى بلده أو فى مملكته ، وقولنا : جمع الأمير الصاغة ، يكون الاستغراق بحسب جمع الصاغة المخصوصة لا الصاغة المطلقة(١).

التعريف بالإضافة :

يؤتى بالمسند إليه معرفا بالإضافة إلى أحد المعارف لأغراض بلاغية منها :

١ - إنها أخصر طريق إلى إحضاره فى ذهن السامع ، كقول جعفر ابن علبة الحارثى :

هَوَاىَ مَعَ الرَّكْبِ الْيَمَانِينَ مُصْعِدٌ
جَنِيبٌ وَجُثْمَانِى بِمَكَّةَ مُوثَقُ(٢)

يريد : أن حبيبه يعتزم الرحيل ، وكان يود أن يودعه ولكن السجن حال دون تحقيق أمله .

فقد عرف الشاعر المسند إليه بالإضافه ، لأنه أخصر الطرق إلى ذهن السامع ، والاختصار مطلوب لما كان يحسه الشاعر من ضيق صدره وشدة ألمه وحزنه لكونه سجينا وحبيبه راحل .

---

(١) حاشية الطسوقى ضمن شروح التلخيص جـ١ - ص٣٣١

(٢) هواى : مصدر أريد به اسم المفعول أى مهوى الركب اسم جمع كصحب وصاحب ، واليمانين جمع يمان ، ومصعد : من أصعد فى الأرض إذا سار فيها وأوغل ، والجنيب : المستتبع وهو من يتبعه قومه .

٢ - تعظيم شأن المضاف ، كقوله تعالى : إن عبادى ليس لك عليهم سلطان»(١).

ففيه تعظيم لشأن العباد بأنهم عباد الله .

أو تعظيم المضاف إليه كقولك : خادمى فعل كذا ، فنى الإضافة تعظيم المتكلم بأنه يتخذ خادما لنفسه .

أو تعظيم غير المضاف والمضاف إليه كقولك عالم المدينة زارنى ،فنى الإضافة تعظيم للمتكلم وهو غير المسند إليه المضاف وغير ما أضيف إلية المسند إليه .

٣ - تحقير شأن المضاف كقولك «صديق اللص قادم» فنى الإضافة تحقير للمضاف بأن صديقه لص .

أو تحقير شأن المضاف إليه كقولك «صديق زيد خائن » ففيه تحقير المضاف إليه بأن صديقه خائن .

أو تحقير غير المضاف إليه كقولك « ولد اللص يجالس عمرا » فنى الإضافة إهانة لعمرو بأن ابن اللص من جلسائه ، وعمرو ليس مضافا ولا مضافا إليه .

٤ - إغناؤها عن تفصيل متعذر أو متعسر ، أو حال دونه مانع .
فالأول كقولك ، اتفق علماء الإسلام على كذا» فقد أتى بالمسند إليه مضافا لتعذر تعداد علماء الإسلام .

والمتعسر كقولك : أبناء المدينةالمنورة كرام،فإنه يتعسر على الإنسان أن يذكرهم فردا فردا .

---

(١) الحجر ٤٢

وقول حسان بن ثابت :

أولادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَــبْرِ أبيهِمُ
قَــبْرِ ابنِ ماوِيَةَ الكريمِ المفضلِ(١)

وقول مروان بن أبي حفصة :

بَنُـــو مَطَرٍ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ
أسودٌ لها في غِيلِ خَفَّانَ أَشْبُلُ(٢)

فقد أضيف المسند إليه في البيتين لتعسر ذكر أولاد جفنة وبني مطر أو إغنائها عن تفصيل حال دونه مانع كقول الحارث بن وعلة الجرمي :

قَوْمِي هُمُ قَتَـــلُوا أُمَيْمَ أَخِي
فإذا رميتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي(٣)

يريد قومي هم الذين فجعوني بقتل أخي يا أميمه ، فإذا هممت بالانتقام منهم أصابني سهمي ، وكما ترى فقد أتى بالمسند إليه «قومي» مضافا لأن في تفصيله بذكر أسمائهم تصريحا بذمهم ، وهذا من شأنه أن يزداد حقدهم عليه ونفورهم منه في حين أنهم قومه ولا غنى له عنهم .

٥ — أن تتضمن الإضافة اعتبارا لطيفا ، كقول الشاعر :

---

(١) أولا جفنة : من الغاسنة الذين كان الشاعر يمدحهم بالشام ، وقبر ابن ماوية بدل قبر أبيهم قصد به البيان

(٢) بنو مطر : قومه : بطن من شيبان : والغيل : الشجر المجتمع وهو مأوى الوحوش عادة ، وخفان : مأسده مشهورة بقوة أسودها ، والأشبل جمع شبل وهو ولد الأسد .

(٣) أميم : منادى مرخم أميمه وكانت تحضه على الأخذ بثأر أخيه .

إذا كوكبُ الخرقاءِ لاحَ بِسُحْرَةٍ
سهيلٌ أذاعتْ غزلها فى القرائبِ(١)

يريد الشاعر أن يقول : إن المرأة الحمقاء، تظل فى غفلة عن إعداد كسوة الشقاء ، فلا تهيء نفسها له بإعداد الغزل ، إلا فى وقت طلوع الكوكب المذكور سحرا ، وهو لايطلع سحرا إلا فى الشتاء . وحينئذ توزع غزلها على قريباتها ليساعدها فى غزله .

فقد أتى الشاعر بالمسند إليه مضافا « كوكب الخرقاء» لاعتبار لطيف وهو الآشارة إلى أنها مهملة غافلة عن القيام بواجبها . وأنها لا تفيق من غفلتها إلا على ضوء هذا النجم . وكأنه خلق لأجلها . ولهذا أضيف إليها.

يقول بهاء الدين السبكى : أضاف الكوكب إلى الخرقاء . يعنى أنها تنام إلى أن يطلع سهيل وقت الصبح فتفرق غزلها على الغرائب(٢)

وهناك أغراض أخرى لا تخفى على صاحب الذوق السليم .

---

(١) الخرقاء : الحمقاء . وسهيل : بدل من كوكب . وهو نجم يطلع فى بدء الشتاء وقت السحر . وأذاعت فرقت .

(٢) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص جـ١ ص٣٤٧

تنكير المسند إليه

يؤتى بالمسند إليه نكرة لأغراض بلاغية منها :

١ ـ أن يقصد بالحكم إلى فرد غير معين ، لأن الغرض لم يتعلق بتعيينه ، كقوله تعالى : وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى »(١) و فقد جاء المسند إليه منكراً لأن الغرض إثبات الحكم لفرد واحد من أفراد الرجال .

٢ ـ الدلالة على نوع خاص من أنواع الجنس المنكر ، كقوله تعالى « وعلى أبصارهم غشاوة »(٢) فقد جاء المسند إليه منكراً ، لأن القصد فيه إلى نوع خاص من أنواع الأغشية غير ما يتعارفه الناس ، ولو عرف فقيل ، وعلى أبصارهم الغشاوة فى غير القرآن الكريم لانصرف اللفظ إلى المعنى المتعارف ، وهو الغطاء المرفوع مع أنه ليس مرادا .

يقول صاحب المطول « أى نوع من الأغطية غير ما يتعارفه الناس ، وهو غطاء التعامى عن آيات الله ، وفى المفتاح أنه للتعظيم أى غشاوة عظيمة تحجب أبصارهم بالكلية وتحول بينها وبين الإدراك » لأن المقصود بيان بعد حالهم عن الإدراك والتعظيم أدل عليه وأوفى بتاديته(٣) .

وقول الشاعر :

لـكل داءٍ دواءٌ يُستَطَبُّ به
إلا الحماقةَ أعيتْ مَنْ يُداويها

فالمراد لكل داء نوع خاص من الأدوية .

---

(١) القصص ٢٠ (٢) البقرة ٧

(٣) المطول ٨٨

تعظيم

٣ — إفادة المسند إليه ، كقوله تعالى : ولكم فى القصاص حياة(١) فالمراد حياة عظيمة .

٤ — إفادة تحقيره كقولك « لك خصم لا يعتد به » أى خصم حقير لا قيمة له ولا يؤبه به .

هذا . وقد اجتمع التعظيم والتحقير فى قول ابن أبى السمط :

فتى لا يبالى المدلجون بنوره إلى بابه ألا تضئ الكواكب

له حاجب عن كل أمـــر يشينه

وليس له عن طالب العرف حاجب(٢)

يريد : أن ممدوحه له حاجب عظيم من نفسه يمنعه من فعل ما يشينه ، وليس له حاجب ما عن طالب الندى .

فالتنكير فى «حاجب» الأول للتعظيم ، لأن المقام يقتضى أن الحاجب أى المانع من كل ما يشين لا بد أن يكون عظيما ، والتنكير فى « حاجب» الآخر للتحقير ، لأن المراد أنه ليس له أى حاجب عن المعروف والإحسان ولو كان حقيراً ، فخيره يعم كل الناس .

وقول الشاعر :

ولله مِنِّى جانِبٌ لا أُضيعُـــهُ وللهو مِنِّى والخلاعةِ جانِبُ

يريد : أن الجانب الأكبر من تفكيره وعمله ، يقضيه فى طاعة الله وابتغاء مرضاته أما اللهو والعبث فلهما القدر اليسير .

فالجانب الأول مقصود به التعظيم ، والآخر مقصود به التهوين .

---

(١) البقرة ١٧٩

(٢) الحاجب المانع ، والشين : العيب ، والعرف والمعروف : الإحسان.

٥ – إفادة التكثير أو التقليل ، فالتكثير كقولك « إن له لإبلا » « وإن له لغنما » يراد الكثرة .

والتقليل كقوله تعالى : «وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر »(١) .

يقول الخطيب القزوينى : أى وشىء ما من رضوانه أكبر من ذلك كله ، لأن رضاه سبب كل سعادة وفلاح ، ولأن العبد إذا علم أن مولاه راض عنه فهو أكبر فى نفسه مما وراءه من النعيم . وإنما تهنأ له برضاه ، كما أنه إذا علم بسخطه تنغصت عليه ولم يجد لها لذة إن عظمت(٢) .

كما يقول بهاء الدين السبكى « أى رضوان قليل أكبر ليدل على غيره من باب الأولى »(٣) .

ويرى بعض العلماء أن التنكير فى قوله تعالى « ورضوان من الله أكبر » للتعظيم .

يقول ابن يعقوب « وقيل إن التنكير فى الرضوان للتعظيم . . أى ولهم رضوان عظيم من الله تعالى أكبر من كل ذلك زيادة على تلك النعم ، قيل إنه المناسب لأن المقام مقام الإمتنان بنعم الوعد ؛ فالمناسب التعظيم(٤) .

---

(١) التوبة ٧٢
(٢) الإيضاح ٢٩
(٣) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص جـ ١ ص ٣٥٠
(٤) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ١ ص ٣٥١

هذا . والفرق بين التعظيم والتكثير ، أن التعظيم ينظر فيه إلى علو الشأن وسمو القدر ، أما التكثير فينظر فيه إلى الكميات والمقادير .

وقد اجتمع التعظيم والتكثير فى قوله تعالى : «وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك»(١) فقد جاء المسند إليه «رسل» منكراً لإفادة التعظيم والتكثير على معنى رسل ذوو شأن عظيم وعدد كثير .

وقد يجتمع أيضا : التحقير والتقليل كقولك : «لى فى هذا المال نصيب» أى حقير قليل . فالتحقير إن روعى شأن المال ، والتقليل إن روعى عدده .

---

(١) فاطر ٤

خروج الكلام عن مقتضى الظاهر

قد يؤتى بالمسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر لنكتة بلاغية ، ومن ذلك :

١ — وضع المضمر موضع المظهر :

ويأتى ذلك فى موضعين :

أسلوب « نعم وبئس » كقولك « نعم صديقا العلم ، وبئس عدوا الجهل » فى هذين المثالين جاء المسند إليه ضميراً مستقراً يعود فى الأول إلى العلم ، وفى الثانى إلى الجهل ، وكان مقتضى الظاهر أن يؤتى بالمسند إليه هنا إسما ظاهراً ، فيقال نعم العلم صديقا ، وبئس الجهل عدوا ، لأن الضمير يؤتى به إذا تقدم مرجعه ، أو دلت عليه قرينة ، وليس فى هذين المثالين مرجع متقدم على الضمير ، أو قرينة تدل عليه ، وإنما عدل عن الإسم الظاهر لغرض بلاغى ، وهو الإيضاح بعد الإبهام ، أو التفصيل بعد الإجمال ليتمكن فى ذهن السامع فضل تمكن .

هذا . ويكون أسلوب « نعم وبئس » من وضع المضمر موضع المظهر على رأى من يجعل المخصوص بالمدح أو الذم مبتدأ محذوف الخبر ، أو خبراً محذوف المبتدأ .

أما على من يجعل المخصوص مبتدأ والجملة قبله خبراً عنه ، فلا يكون من هذا الباب ، لأن الضمير حينئذ يكون عائدا المخصوص ، وهو إن تأخر لفظا فهو متقدم رتبة .

يقول صاحب المطول : وأما فى قول من يجعل المخصوص مبتدأ ، ونعم

رجلا خبره والتقدير زيد نعم رجلا ، فليس من هذا الباب على القطع ، لاحتمال أن يكون الضمير عائدا إلى المخصوص وهو مقدم تقديرا(١) .

والأسلوب الثانى «ضمير الشأن» كقوله « إنه لا يفلح الكافرون»(٢).

وقوله سبحانه : « فإنها لا تعمى الأبصار »(٣) فالضمير فى الآيتين على معنى « الحال والشأن » وهو ضمير غيبة ولم يتقدمه مرجع ، ولم تدل عليه قرينة وكان مقتضى الظاهر أن يعبر بالإسم الظاهر ، ولكن جاء المسند إليه ضمير التفخيم الشأن أو الحال أو القصة — وواضح أن طريق الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال يساعد على تمكين المعنى فى النفس .

يقول ابن يعقوب « انتظر السامع ما يعقب الضمير ، وهو ما يعين المراد منه ، فإذا جاء بعد الانتظار والتشويق كان أوقع فى النفس ، وذلك لأن حصول العلم بعد التشويق فيه لذة العلم ، ودفع ألم الشوق ، واللذة المشتملة على دفع الألم أحلى من مجرد اللذة الحاصلة بدونه ، وهذا ظاهر فى ضمير الشأن(٤) .

٢ — وضع المظهر وضع المضمر .

قد يعكس البليغ ، فيضع المظهر موضع المضمر لأسرار بلاغية يدركها صاحب الذوق السليم ، والمظهر إذا كان اسم إشارة ، فإن من أغراضه البلاغية :

---

(١) المطول ١٢٧ (٢) المؤمنون ١١٧

(٣) الحج ٤٦

(٤) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ج ١ — ٤٥١

(أ) كمال العناية بالمسند إليه، لاختصاصه بحكم بديع، فيعرض فى صورة المحس المشار إليه، كقول ابن الراوندى:

كَمْ عَاقِلٍ عَاقِلٍ أَعْيَتْ مَذَاهِبُهُ ... وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلْقَاهُ مَرْزُوقًا
هذا الذِي ترك الأوهامَ حَائِرَةً ... وَصَيَّر العالِمَ النحريرَ زِنْدِيقا(١)

يريد أن يقول: إن كثيراً من ذوى الرأى والعقل، ضاقت بهم سبل العيش، بينما نرى الكثير من ذوى الجهل فى سعة من الرزق، وهذا الأمر لخروجه عن العرف المألوف يجعل العقول حائرة.

فقد أتى الشاعر بالمسند إليه اسم إشارة «هذا» وكان ظاهر الحال يقتضى أن يأتى به ضميراً، فيقال «هما» لتقدم المرجع، وهو مادل عليه البيت الأول من حرمان العاقل وإعطاء الجاهل، لكنه عدل عن الضمير إلى اسم الإشارة لنكتة بلاغية، هى كمال العناية بتمييز المسند إليه إذا أبرز فى معرض المحس المشاهد المشار إليه بسبب اختصاصه بأمر عجيب.

(ب) ادعاء كمال ظهوره، وأنه بلغ من الوضوح مبلغ المحس بحاسة البصر.

كقولك «هذه مسألة واضحة» فى مقام الحوار عن مسألة أنكرها الخصم.

---

(١) عاقل: الثانى نعت للأول بمعنى كامل العقل، و«أعيت» فعل يتعدى ويلزم يقال: أعيته الحيلة أى أعجزته ويقال: أعيت عليه أى استعصت، وجاهل الثانى: نعت للأول بمعنى كامل الجهل، وهذا إشارة إلى الحكم السابق والأوهام: يراد بها العقول، والنحرير: الحاذق الماهر، والزنديق: زائغ العقيدة، المنحرف عن الصواب.

يقول الشيخ الدسوقي : يوضع اسم الإشارة مكان المضمر فى باب المسند إليه لادعاء كمال ظهوره عند المتكلم حتى كأنه محسوس بالبصر ، ولو لم يكن ظاهرا فى نفسه ، ومن ذلك قول القائل عند الجدال ، وتقرير مسألة أنكرها الخصم هذه ظاهرة أو مسلمة ، فكان مقتضى الظاهر أن يقال : وهى ظاهرة ، لكنه عدل إلى خلاف مقتضى الظاهر ادعاء لكمال الظهور(١) .

ومنه فى غير باب المسند إليه قول الشاعر :

تَعَالَلْتِ كَىْ أَشْجَى وَمَا بِكِ عِــلَّةٌ
تريدينَ قَتْلِي ، قـــد ظفرتِ بذَلك(٢)

فقد وضع اسم الإشارة « ذلك » موضع الضمير ، لأن الظاهر أن يقال : قد ظفرت به أى بالقتل .

والغرض من ذلك : هو ادعاء كمال ظهورة حتى كأنه محسوس بالبصر .

يقول ابن يعقوب : عدل إلى اسم الإشارة لادعاء ظهور القتل ، وأنه فى غاية الوضوح بحيث لا يشك فيه .. وإنما صح ترتيب قتله على إظهار العلة ، مع جزم المقتول بانتفائها لأنه يدعى مونه بتوهم العلة ، بل بتصورها ، ولو كان التوهم فاسداً ، فكيف به لو حققت العلة ، وهذا من الظرافة بمكان فليفهم(٣) .

هـذا . وإذا كان المظهر الموضوع موضع المضمر غير اسم الإشارة فلأغراض بلاغية منها :

(ا) الاسترحام والاستعطاف ، كقول الشاعر :

---

(١) حاشيه الدسوقى : ضمن شروح التلخيص جـ ١ — ٤٥٥

(٢) تعاللت : أظهرت العلة وما بك علة ، أشجى : أحزن .

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ١ ٤٥٦

إلهى عَبْدُكَ العاصِى أتاكا
مُقِرّاً بالذنوبِ وقَدْ دعاكا
فإنْ ترْحمْ فأنتَ لذاكَ أهلٌ
وإن تطْرُدْ فَمَنْ يرْحَمْ سِوَاكَ

فمقتضى الظاهر أن يعبر بضمير المتكلم فيقول : « أنا العاصى » بيد أنه عدل عن ذلك لنكتة بلاغية هى قصد الإسترحام والإستعطاف ؛ لما فى لفظ عبد من الخضوع والتذلل إلى جانب ترقب الرحمة واستحقاق العطف والشفقة من المعبود .

(ب) تربية المهابة « أو طلب أمتثال ما أمر به المتكلم » كقول الخليفة: أمير المؤمنين يأمرك بكذا ، فمقتضى الظاهر أن يقول : أنا آمرك بكذا، لأن المقام للتكلم وواضح أن إسناد الأمر إلى لفظ أمير المؤمنين موجب لتقوية الداعى على الإمتثال للأمر وتربية المهابة فى النفوس .

يقول ابن يعقوب : دل لفظ الأمير على القهر فيشعر بالخوف منه ، وأنه يهلك العاصى بقوته ، والداعى إلى الإمتثال موجود فى كل دال على الذات الإمامية ، ولفظ الأمير يتقوى به ذلك الداعى(١) .

وعليه من غير باب المسند إليه قوله تعالى : « فإذا عزمت فتوكل على الله »(٢) .

فمقتضى الظاهر أن يقال «فتوكل على» بيد أنه عدل إلى المظهر وهو لفظ الجلاله لما فيه من تقويه الداعى إلى الإمتثال .

يقول صاحب المطول : لم يقل على ، لما فى لفظ الله من تقوية داعى

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص حـ ١ ص ٤٥٩
(٢) آل عمران ١٥٩

النبي ﷺ إلى التوكل عليه، لدلالته على ذات موصوفة بالقدرة الكاملة وسائر أوصاف الكمال(١) .

(ج) زيادة التمكين : كقوله تعالى: « قل هو الله أحد الله الصمد »(٢)، فقد جاء المسند إليه أسماً ظاهراً ، ليتمكن فى ذهن السامع فضل تمكن ، وتقرير أعتقاد عظمة المسند إليه ، وإفراده بالصمدية .

يقول الشيخ الدسوقى : لأنه لو قال هو الصمد لكان فيها استحضار للذات بالضمير لكن لم يكن فيه تمكن وتقرر، لأن فى الضمير إبهاما بخلاف المظهر ، فإنه أدل على التمكن لاسيما إذا كان علما لأنه قاطع للإشتراك من أصله ، والتمكن يناسب التعظيم والإفراد بالصمدية اللذين هما الغرض من هذا الخطاب(٣) .

ومنه فى غير باب المسند إليه قوله تعالى : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل »(٤)، فكان مقتضى الظاهر أن يقال : « وبه نزل » فترك الضمير ، وأتى بالاسم الظاهر « وبالحق نزل » لزيادة التمكن فى ذهن السامع ، لأن المقام مقام تقرير حكمة الإنزال .

يقول صاحب المطول : نظير قل هو الله أحد الله الصمد فى وضع المظهر موضع المضمر لزيادة التمكين من غير باب المسند إليه قوله تعالى : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » أى ما أنزلنا القرآن إلا بالحكمة المقتضية لإنزاله ، وما نزل إلا بالحكمة لاشتماله على الهداية إلى كل خير(٥) .

---

(١) المطول ١٢٩ (٢) الإخلاص ١ ، ٢

(٣) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص حـ ١ — ٤٥٧

(٤) الإسراء ١٠٥ (٥) المطول ١٢٩

٣ ـ الإلتفات :

أسلوب الإلتفات ، من أساليب إخراج الكلام على غير مقتضى الظاهر ، التي تكسب الكلام حسناً وبهاء .

وهذا الأسلوب ليس خاصاً بالمسند إليه ، والمشهور عند الجمهور أنه التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة « التكلم والخطاب والغيبة » بعد التعبير عنه بطريق آخر منها(١) .

هذا . ويشترط أن يكون التعبير الثاني على خلاف ما يقتضيه ظاهر السياق ويترقبه السامع ، والالتفات مأخوذ من « التفت الإنسان » إذا تحول بعنقه عن اليمين إلى الشمال أو العكس .

وصور الإلتفات ست :

(ا) من التكلم إلى الخطاب ، كقوله تعالى : « ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون »(٢) .

ففي قوله تعالى : « وإليه ترجعون » التفات ، فقد عبر عن الذات أولا بطريق التكلم فى قوله : « ومالى لا أعبد الذى فطرنى » ثم التفت فعبر عنها بطريق الخطاب فى قوله: « وإليه ترجعون » ، ومقتضى الظاهر أن يقال: وإليه أرجع .

يقول القرطبي : وهذا احتجاج منه عليهم، وأضاف الفطرة إلى نفسه، لأن ذلك نعمة عليه توجب الشكر ، والبعث إليهم ، لأن ذلك وعيد يقتضى

(١) الإيضاح ٤٣
(٢) يس ٢٢

الزجر، فكأن إضافة النعمة إلى نفسه أظهر شكراً، وإضافة البعث إلى الكافر أبلغ أثراً(١).

(ب) من التكلم إلى الغيبة، كقوله تعالى: «إنا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وانحر»(٢).

فقد عبر عن المعنى بطريق التكلم «إنا أعطيناك»، ثم التفت فعبر عنه بطريق الغيبة فى قوله: «فصل لربك»، لأن الاسم الظاهر من قبيل الغيبة وكان مقتضى الظاهر أن يقال «فصل لنا».

يقول الشيخ الدسوقى: لأن «أعطيناك» تكلم، وقوله «لربك» غيبه لأن الاسم الظاهر من قبيل الغيبة، وفائدة الإلتفات فى الآية أن فى لفظ «الرب» حثا على فعل المأمور به، لأن من يربيك يستحق العبادة(٣).

(ج) من الخطاب إلى التكلم كقوله تعالى: «واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود»(٤).

فى الآيه الكريمة التفات من الخطاب فى «استغفروا ربكم» إلى التكلم فى قوله: «إن ربى رحيم ودود» ومقتضى الظاهر أن يقال: «إن ربكم».

(د) من الخطاب إلى الغيبة كقوله تعالى: «حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم»(٥).

---

(١) تفسير القرطبي ط دار الشعب ٥٤٦٢

(٢) الكوثر ١، ٢.

(٣) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص جـ ١ — ٤٦٨

(٤) هود ٩٠

(٥) يونس ٢٢

فقد عبر عن المعنى أولا بطريق الخطاب فى قوله «إذا كنتم» ثم التفت فعبر عنه ثانياً بقوله « وجرين بهم بريح طيبة » وكان مقتضى الظاهر أن يقال : « وجرين بكم » .

يقول ابن يعقوب: «فقد عبر بطريق الخطاب فى قوله كنتم ، ثم بطريق الغيبة فى قوله بهم ففيه الإلتفات»(١) .

(هـ) من الغيبة إلى الخطاب كقوله تعالى : مالك يوم الدين ، إياك نعبد »(٢) .

فقد التفت عن الغيبة وهى « مالك يوم الدين » إلى الخطاب ، وهو « إياك نعبد » .

يقول ابن يعقوب : فقوله « مالك يوم الدين » وصف بظاهر ، وهو من قبيل الغيبة ، فاقتضى الظاهر سوق الكلام على طريق الغيبة ، ثم عدل إلى الخطاب فى قوله: «إياك نعبد » ومقتضى الظاهر أن يقال: إياه نعبد(٣) .

(و) من الغيبة إلى التكلم ، كقوله تعالى : والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت »(٤) .

فقد عبر باسم الجلالة، موصوفاً باسم الموصول ، وعاد عليه ضمير الغيبة « فاعل أرسل » وكان مقتضى الظاهر أن يقال « فساقه » إلى بلد ميت ، ولكنه التفت فيه من الغيبة إلى التكلم فقال «فسقناه» .

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ١ — ٤٧١
(٢) الفاتحه ٤ ، ٥
(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ١ — ٤٧١
(٤) فاطر ٩

يقول القرطبي قال « فسقناه » بعد أن قال « والله الذى أرسل الرياح » وهو من باب تلوين الخطاب »(١).

كما يقول الزمخشري : لم جاء «فتثير» على المضارعة دون ما قبله ومابعده، قلت : ليحكى الحال التى تقع فيها إثارة الرياح للسحاب ، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تميز وخصوصية بحال تستغرب أوتهم المخاطب،أو غير ذلك ... وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت ، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها ، لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة،قيل فسقنا وأحيينا ، معدولا بهما عن لفظ الغيبة إلى ماهو أدخل فى الإختصاص وأدل عليه(٢) .

هذا . ويرى السكاكى : أن الإلتفات هو التعبير عن المعنى بطريق من الطرق الثلاثة ، التكلم والخطاب والغيبة ، مخالف لمقتضى الظاهر ، سواء سبقه تعبير آخر بإحدى هذه الطرق، أو لم يسبقه ، كقول ربيعه بن مقروم:

بَانَتْ سُعَادُ فَأَمْسَى القَلْبُ مَعْمُودَاً
وَأَخْلَفَتْكَ أبنــةُ الحرِّ المواعيدا(٣)

وفى البيت التفات على رأى السكاكى،حيث قال « وأخلفتك » ولم يقل « وأخلفتنى » .

ويجوز أن يكون الخطاب فى قوله : « وأخلفتك » تجريداً لا التفاتا حيث جرد من نفسه شخصاً آخر ، وخاطبه .

---

(١) تفسير القرطبي ط دار الشعب ٥٤٠٩

(٢) الكشاف ج ١ — ٣٠١

(٣) المعمود : الحزين ، وأبنــة الحر : هى سعاد من وضع المظهر موضع المضمر .

يقول الشيخ الدسوقى: مبنى التجريد على المغايرة، والإلتفات على اتحاد المعنى هذا هو التحقيق، خلافا لمن قال لا منافاة بينهما(١).

بلاغة الإلتفات:

الإلتفات فن أخاذ من فنون البلاغة، له حسنه وجماله، فهو يكسو الكلام طلاوة، ويحدث فى النفس لذة ومتعة.

يقول الزمخشرى: إن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من أجرائه على أسلوب واحد(٢).

كما يقول السكاكى: وهذا النوع قد يختص مواقعه بلطائف معان قلما تتضح إلا لأفراد بلغائهم، أو للحذاق المهرة فى هذا الفن والعلماء والنحارير، ومتى أختص موقعه بشىء من ذلك كساه فضل بهاء ورونق، وأورث السامع زيادة هزة ونشاط، ووجد عنده من القبول أرفع منزلة ومحل إن كان ممن يسمع ويعقل(٣).

هذا. وقد تختص مواقعة بلطايف، كما فى سورة الفاتحة، فإن العبد إذا أفتتح حمد مولاه الحقيق بالحمد، عن قلب حاضر، ونفس ذاكرة لما هو فيه بقوله «الحمد لله» الدال على اختصاصه بالحمد وأنه حقيق به، وجد من نفسه لا محالة محركا للإقبال عليه، فإذا أنتقل على نحو الإفتتاح إلى قوله «رب العالمين» الدال على أنه مالك للعالمين، لا يخرج منهم شىء عن ملكوته

---

(١) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص حـ ١ — ٤٦٤

(٢) الكشاف جـ ١ — ٦٤

(٣) المفتاح ٩٦

وربوبيته ، قوى ذلك المحرك ، ثم انتقـــل إلى قوله « الرحمن الرحيم » الدال على أنه منعم بأنواع النعم ، جلائلها ودقائقها ، وتضاعفت قوة ذلك المحرك ، ثم إذا انتقل إلى خاتمة هذه الصفات العظام ، وهى قوله « مالك يوم الدين » الدال على أنه مالك للأمر كله يوم الجزاء تناهت قوته ، وأوجب الإقبال عليه وخطابه بتخصيصه بغاية الخضوع والإستعانة فى المهمات .

وكما فى قوله تعالى : « ولو أنهم إذا ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول »(١) .

ولم يقل واستغفرت لهم ، وعدل عنه إلى طريق الإلتفات تفخيما لشأن رسول الله ﷺ ، وتعظيما لإستغفاره ، وتنبيها على أن شفاعة من أسمه بالرسول من الله بمكان(٢) .

٤ — التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى :

قد يعبر عن المستقبل بلفظ الماضى لأجل التنبيه عن تحقق وقوع الفعل ، كقوله تعالى : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله »(٣) .

وقوله جل شأنه « ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً »(٤) .

---

(١) النساء ٦٤

(٢) الإيضاح ـ ٤٥ ـ

(٣) الزمر ٦٨

(٤) الكهف ٤٧

وقوله جل شأنه « ونادى أصحاب النار »(١) وقوله عز وجل « ونادى أصحاب الأعراف »(٢) . وقوله سبحانه : « ويوم ينفخ فى الصور ، ففزع من فى السموات ومن فى الأرض »(٣) فقد جعل المتوقع الذى لابد من وقوعه بمنزلة الواقع(٤) .

يقول ابن يعقوب : فالفزع يقع فى المستقبل ، وعبر عنه بصيغة الماضى ، كما رأيت ، تنبيها على التحقيق ، والأصل ، فينفزع من فى السموات ومن فى الأرض(٥) .

كما يقول الشيخ الدسوقى : والشاهد موجود فى كل من الآيتين ، وذلك لأن كلا من الفزع والصعق معنى استقبالى عبر عنه بصيغة الماضى على خلاف مقتضى الظاهر تنبيها عن تحقق وقوعه ، لأن الماضى يشعر بتحقق الوقوع(٦) .

ومن التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى ماروى أن حسان بن ثابت رضى الله عنه ، جاءه ابنه عبد الرحمن وهو يبكى ، فقال له : يابنى مالك ؟ قال . لَسَعَنِي طُوَيِّر كأنه مُلْتَفٌّ فى بُرْدَيْ حَبِرَة(٧) فضمه إلى صدره ، وقال : قد قلت الشعر يريد ستقول الشعر .

٥ — التعبير عن الماضى بلفظ المضارع كقوله تعالى « والله الذى أرسل رياحا فتثير سحابا »(٨) .

---

(١) الأعراف ٥٠ (٢) الأعراف ٤٨
(٣) النمل ٨٧ (٤) الإيضاح ٤٧
(٥) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ١ ٤٨٤
(٦) حاشيه الدسوقى ضمن شروح التلخيص جـ ١ ٤٨٥
(٧) طوير : تصغير طائر - والحبر : ضرب من برود اليمن .
(٨) فاطر ٧

فإثارة الرياح السحاب وقعت أن أرسلها الله تعالى ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال « فأثارت » لكنه عبر عنها بصيغة المضارع « فتثير » على خلاف مقتضى الظاهر ، لقصد استحضار صورتها فى الخيال .

يقول الزمخشرى : فإن قلت لم جاء « فتثير » على المضارعة ، دون ما قبله وما بعده قلت : لتحكى الحال التى تقع فيها إثار الرياح السحاب ، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية(١) .

هذا . وهناك صور أخرى من إخراج الكلام عن مقتضى الظاهر ، كالأسلوب الحكيم ، والقلب جدير بها ، علم البديع .

---

(١) الكشاف ج ١ — ٣٠١٠

أحوال المسند

المسند هو المحكوم به ، وله أيضاً ، أحوال تعرض له ، وبها يطابق مقتضى الحال من ذكر أو حذف ، أو تقديم أو تأخير إلى غير ذلك .

ذكر المسند

يذكر المسند فى الكلام — مع وجود القرينة الدالة عليه — لأغراض بلاغية منها :

١ — الاحتياط لضعف التعويل على القرينة ، كقولك « عنترة أشجع وحاتم أجود » فى جواب من قال: من أشجع العرب فى الجاهلية وأكرمهم؟ فلو حذف المسند «أجود» ربما فهم أن حاتماً يشارك عنترة فى الحكم السابق، ومن ثم فقد صرح بالمسند احتياطاً لاحتمال الغفلة عن العلم به من السؤال(١).

٢ — التعريض بغباوة السامع ، كقولك « محمد نبينا » فى جواب سؤال « من نبيكم » ؟ فكان من الممكن ترك لفظ « نبينا » لدلالة القرينة عليه ، بيد أنه ذكر للتعريض بغباوة السامع .

يقول ابن يعقوب: تعريضاً بالسامع ، وأنه لو كان له ميز لم يسأل عن نبينا لأنه أظهر من أن يتوهم خفاؤه ، فيجاب بذكر أجزاء الجملة إعلاماً بأن مثل هذا لا يكفى معه إلا التنصيص لعدم فهمه بالقرائن الواضحة(٢) .

٣ — زيادة التقرير ، كقوله تعالى : ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم »(٣) .

---

(١) انظر شروح التلخيص حاشية الدسوقى جـ ٢ ص ١٩
(٢) مواهب الفتاح جـ ٢ ص ١٩
(٣) الزخرف آية ٩

يقول القرطبي : فأقروا له بالخلق والإيجاد ، ثم عبدوا معه غيره جهلا منهم(١) .

٤ — الاستلذاذ بذكره كقولك : هي ليلى في جواب هل هذه ليلى؟ إلى غير ذلك من الأغراض كالتعظيم والتحقير ، وبسط الكلام .

إيراد المسند فعلا :

يؤتى بالمسند فعلا لإفادة تقييده بأحد الأزمنة الثلاثة ، مع إفادة الاختصار والتجدد في الحدث .

وقد يفيد الفعل المضارع التجدد الاستمراري ، بمعنى أن الفعل مستمر الحصول والتجدد ، ويكون ذلك بمعونة القرائن .

كقوله تعالى: «إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق»(٢).
فالمراد إفادة أن التسبيح يحدث من الجبال آنا إثر آن وحالا بعد حال.

وقوله تعالى «هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض»(٣).
فالرزق حاصل ومستمر التجدد ، لاينقطع ولا يزول .

وقول طريف بن تميم :

أَوَ كُلَّمَا وَرَدَتْ عكاظَ قبيلةٌ ... بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُم يَتَوَسَّمُ(٤)

---

(١) تفسير القرطبي ط الشعب سنة ٥٨٨٥

(٢) ص آية ١٨

(٣) فاطر آيه ٣

(٤) عكاظ : سوق للعرب ، كانت تقام في مستهل ذي القعدة ، وتستمر إلى العشرين منه وعريف القوم القائم بأمرهم ، والتوسم : التأمل في الشيء مرة بعد أخرى .

يريد : أنه شجاع . له مع كل قبيلة موقف مشهور ، حتى كانت له عند كل قبيلة وقيعة ، فإذا ماوردت القبائل سوق عكاظ بعثت كل قبيلة رائدها ليتعرف الوجوه ويتفرسها لعله يهتدى إليه ، فتثأر لدمها .

يقول الشيخ العباسى : كانت فرسان العرب إذا كان أيام عكاظ فى الشهر الحرام ، وأمن بعضهم بعضاً تقنعوا حتى لا يعرفوا ، وذكر عن طريف هذا — وكان من الشجعان — أنه كان لا يتقنع كما يتقنعون ، فوافى عكاظ سنة ، وقد حشدت بكر بن وائل ، وكان طريف هذا قبل ذلك قد قتل شراحيل الشيبانى ، فقال حصيصه بن شراحيل ، أرونى طريفا ، فأروه إياه ، فجعل كلما مر طريف تأمله ونظر إليه ، حتى فطن له طريف فقال له : مالك تنظر إلى مرة بعد مرة ؟ فقال أتوسمك لأعرفك ، فلله على لئن لقيتك فى حرب لأقتلنك أو لتقتلنى ، فقال طريف عند ذلك الأبيات .

والشاهد فيه : مجىء المسند فعلا ليفيد حدوث التجدد حالا بعد حال ، وهو هنا « يتوسم » أى يتفرس الوجوه ، ويتصفحها ، يحدث ذلك منه شيئا فشيئا ولحظة فلحظة(١) .

ويقول الإمام عبد القاهر : وذلك لأن المعنى على توسم وتأمل ، ونظر يتجدد من العريف هناك حالا فحالا ، وتصفح منه للوجوه واحداً بعد واحد ، ولو قيل : بعثوا إلى عريفهم متوسماً لم يفد ذلك حق الإفادة(٢) .

إيراد المسند إسماً :

يؤتى بالمسند إسما لإفادة الثبوت والدوام ، وإفادته للثبوت من أصل وضعه ، فقولك : محمد مسافر ، يفيد ثبوت السفر لمحمد ، من غير مراعاة

---

(١) معاهد التنصيص جـ١ ص ٢٠٤

(٢) دلائل الإعجاز ص ١١٧

للتجدد والحدوث ، فالمعنى فيه كالمعنى فى قولك : عمرو طويل ، وزيد قصير ، فالمراد إثبات الطول لعمرو ، والقصر لزيد ، من غير مراعاة التجدد والحدوث .

أما إفادته للدوام والاستمرار ، فتأتى من قرائن الأحوال وسياق الكلام .

كقول النضر بن جؤية :

لا يألفُ الدرهمَ المضروبَ صرتُنا لكن يمرُّ عليها وهو منطلق(١)

يريد أن قومه أسخياء ، يجودون بما يملكون . ودراهمهم تفد إلى صرتهم تباعا بيد أنها تمر بها سراعا .

فقد جاء المسند إسما لإفادة الثبوت والدوام لانطلاق الدراهم .

يقول الإمام عبد القاهر : ولو قلته بالفعل : لكن يمر عليها وهو ينطلق لم يحسن .

وإذا أردت أن تعتبره بحيث لا يخفى أن أحدهما « الفعل أو الاسم » لا يصلح فى موضع صاحبه ، فانظر إلى قوله تعالى « وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد »(٢) فإن أحداً لا يشك فى امتناع الفعل هنا ، وأن قولنا « كلبهم

---

(١) الصرة : كيس الدراهم ، والمشهور نصبه مفعولا لقوله: لا يألف، ورفع الدرهم على الفاعلية ، والأحسن العكس ، ليكون عدم الألفة من جانب الصرة ، فيكون أدل على الكرم ، إذ يفيد حينئذ أن الدراهم هى التى تسعى إليهم ، وهم الذين يرفضونها ، بخلاف ما إذا كان عدم الألفة من جانب الدرهم ، فإنه يوهم أنهم فقراء لا يقع فى أيديهم شىء من الدراهم .

(٢) الكهف آية ١٨

يبسط ذراعيه ، لايؤدى الغرض ، وليس ذلك إلا لأن الفعل يقتضى مزاولة وتزجية فعل ومعنى يحدث شيئا فشيئا، ولا فرق بين «وكلبهم باسط» وبين أن تقول: « وكلبهم واحد » مثلا فى أنك لاتثبت مزاولة ، ولاتجعل الكلب يفعل شيئا ، بل تثبته بصفة هو عليها ، فالغرض إذن تأدية هيئة الكلب .

ومتى اعتبرت الحال فى الصفات المشبهة ، وجدت الفرق ظاهراً بينا ، ولم يعترضك الشك فى أن أحدهما لايصلح فى موضع صاحبه ، فإذا قلت : زيد طويل ، وعمرو قصير لم يصلح مكانه يطول ويقصر ، وإنما تقول : يطول ويقصر ، إذا كان الحديث عن شىء يزيد وينمو ، كالشجر والنبات والصبى ، ونحو ذلك مما يتجدد فيه الطول ، أويحدث فيه القصر ، فأما وأنت تتحدث عن هيئة ثابتة، وعن شىء قد استقر طوله ولم يكن ثم تزايد وتجدد، فلا يصلح فيه إلا الاسم(١) .

كما يقول الشيخ الدسوقى : فتعبيره بمنطلق الأشعار بأن انطلاق الدراهم من الصرة أمر ثابت دائم لايتجدد ، وأن الدراهم ليس لها استقرار ما فى الصرة ، وهذا مبالغة فى مدحهم بالكرم(٢) .

هذا . وإذا كان الفعل يفيد التجدد والحدوث ، فكذلك الجملة الفعلية . وإذا كان الاسم يفيد الثبوت والدوام ، فكذلك الجملة الإسمية .

انظر إلى قوله تعالى « سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون »(٣) ، فقد جاءت الجملة الأولى فعلية « أدعوتموهم » والجملة الثانيـــة إسمية

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١١٥

(٢) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص جـ ٢ ص ٣٠

(٣) الأعراف آية ١٩٣

«أنتم صامتون» لتفيد الأولى التجدد والحدوث ، والثانية الدوام والثبوت، فيكون المعنى : سواء عليكم أن تحدثوا دعاءهم ، أو أن تستمروا على صمتكم، والمراد بالدعاء طلب الهداية والنجاة والموجه إليهم الدعاء ، هى الأصنام المعبودة من دون الله .

وكان الوثنيون الذين يعبدون هذه الأصنام من عادتهم أنهم لا يدعون هذه الأصنام إذا نزلت بهم شدة وإنما يدعون الله ، فقيل سواء عليكم أأحدثتم الدعاء على غير عادة ، أم بقيتم مستمرين على عادة صمتكم ، ولو قيل سواء عليكم أدعوتموهم أم صمتم ، لأفاد أن صمتهم عن دعائهم لم يكن ثابتا، وإنما هو صمت حادث ، وهذا بخلاف الواقع .

يقول الزمخشرى : فإن قلت : هلا قيل أم صمتم ، ولم وضعت الجملة الإسمية موضع الفعلية ؟ قلت لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر دعوا الله دون أصنامهم ، كقوله « وإذا مس الناس ضر » فكانت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتهم فقيل إذ دعوتموهم لم تفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم ، وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم(١) .

وقوله تعالى : « قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين »(٢) .

فقد عبروا فى الجملة الفعلية فى قولهم « أجئتنا » لتشير إلى التجدد ، وكأنهم يقولون أحدث منك مجىء بالحق، ولم تكن كذلك ، وعبروا بالجملة الإسمية ثانيا فى قولهم « أنت من اللاعبين » ، ليفيدوا الاستمرار والدوام، يعنى أم أنت مستمر فى لعبك الذى عهدناه فيك ، ولو قالوا : أم لعبت ،

---

(١) الكشاف جـ٢ ص١٣٨
(٢) الأنبياء آية ٥٥

وجاءوا بالفعلية ، لأفاد أن اللعب حادث طارىء ، وأنه كان قبل ذلك جادا غير هازل ، وهذا غير مراد لهم .

وقوله تعالى : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم »(١) .

فقد عبروا فى خطاب المؤمنين بقولهم آمنا ، أى حدث بعد أن لم يكن؛ وفى خطاب إخوانهم إنا معكم ، أى مستمرون على ما ألفوه من الكفر(٢).

وقوله تعالى : « قالوا سلاما ، قال سلام »(٣) .

إذ الأصل الأول : نسلم عليك سلاما ، وتقدير الثانى سلام عليكم ، كأن إبراهيم عليه السلام قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه — لأن الجملة الإسمية فى ذلك تفيد الثبوت والدوام بخلاف الفعلية — أخذاً بأدب الله تعالى فى قوله « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها »(٤) .

---

(١) البقرة آية ٢٤
(٢) انظر خصائص التراكيب ص ٢٣٧
(٣) هود آية ٦٩
(٤) النساء آية ٦٦

حذف المسند

من البين أن المسند لا يجوز حذفه ، سواء أكان خبرا أو فعلا ، إلا إذا دل عليه دليل ، كما عرفت فى المسند إليه ، وعند وجود القرينة الدالة عليه يترجح حذفه لأغراض بلاغية منها :

١ — ضيق المقام بسبب التوجع ، أو المحافظة على الوزن ، كقول ضابئ بن الحارث :

وَمَنْ يَكُ أَمْسَى بِالمدينةِ رَحْـلُه
فَإنِّى وقيارٌ بِهَا لَغَرِيبُ(١)

يتوجع الشاعر مما ألم به ، من حرقة البعد وألم الفراق عن أهله ووطنه وقد حذف الشاعر المسند « غريب » والتقدير « وقيار غريب » .

هذا . وقد قدم الشاعر اسم فرسه أو جملة « قيار » على قوله « لغريب » لنكتة لطيفة وهى أن هذا الحيوان الأعجم قد ناله من ألم الغربة وقسوتها ماجعله يشاطر صاحبه مرارتها

يقول الشيخ الدسوقى : قدم « قيار » على قوله « لغريب » الإشارة إلى أن قيارا ولو لم يكن من جنس العقلاء ، بلغه هذا الكرب ، واشتدت عليه هذه الغربة ، حتى صار مساويا للعقلاء ، فى التشكى منها ، ومقاساة شدتها ، بخلاف مالو أخره ، فلا يدل الكلام على التساوى(٢) .

---

(١) الرحل : المنزل والمأوى ، قيار : اسم فرس أو جمل للشاعر ، وجواب الشرط محذوف وتقديره فقد حسنت حاله وساءت حالى وحال قيار ، لأنى وقيار بها لغريب .

(٢) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ج ٢ ص ٢

وقول قيس بن الخطيم :

نحنُ بما عندنا وأنتَ بما
عندكَ راضٍ والرأىُ مُختلِف

يخاطب الشاعر مالك بن العجلان حين رد قضاءه فى واقعة من وقائع الأوس والخزرج ، قائلا له : كلانا قانع برأيه راض به ، وقد حذف المسند هنا « راضون » لضيق المقام بسبب الشعر ، وعدم استعداد المخاطب لقبول الكلام ، وقد حذف من الأول لدلالة الثانى عليه .

يقول ابن يعقوب : أى نحن راضون بما عندنا ، وأنت راض بما عندك من الرأى أى فرأينا مختلف ، فليتبع كل رأيه ، فخبر نحن محذوف كما ترى(١)

٢ — الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر ، كقولك « زيد منطلق وعمرو » أى وعمر منطلق فحذف للاحتراز عن العبث .

يقول ابن يعقوب : والأصل : وعمرو منطلق ، فحذف خبر عمرو للاحتراز بناء على الظاهر من غير ضيق وزن أو غيره(٢)

وقوله تعالى : « واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ، واللائى لم يحضن »(٣)

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ٢ - ٥
(٢) مواهب الفتاح جـ ٢ — ٦
(٣) الطلاق ٤

يقول الزمخشري: « واللائي لم يحضن » من الصغائر، والمعنى فعدتهن ثلاثة أشهر لحذف لدلالة المذكور عليه(١)

٣ - اتباع الاستعمال الوارد، كقولك: خرجت من المنزل فإذا العواصف، وسرت في الطريق فإذا المطر نازل، فالخبر في هذين المثالين يدل على معنى عام، هو الشدة في الأول، والنزول في الثاني، وكلاهما مفهوم من سياق الكلام.

وقول الأعشى:

إِنَّ مَحَــلًّا وَإِنَّ مُرْتَحَلًا
وإن في السَّفْرِ إِذْ مَضَوْا مَهلًا(٢)

يريد: إن لنا في الدنيا حلولا إلى حين، وإن لنا عنها في الآخرة ارتحالا إلى حيث لا عودة إليها، وإن في غيبة الموتى طولا وبعدا، لأنهم مضوا مضيا، لا رجوع معه إلى الدنيا،

فقد حذف الشاعر المسند « خبر إن » اتباعا للاستعمال الوارد على حذف الخبر عند تكرار « إن » وتعدد اسمها.

يقول الشيخ الدسوقي: أي الوارد على ترك نظيره، لأنه اطرد حذف الخبر مع تكرار « إن » وتعدد اسمها سواء أكانا نكرتين كامثل، أو معرفتين كقولك: إن زيدا، وإن عمرا، ولو حذفت « إن » لم يجز أو لم يحسن(٣)

---

(١) الكشاف ج ٤ - ١٢١

(٢) محلا ومرتحلا: مصدران ميميان بمعنى الحلول والارتحال، والسفر اسم جمع بمعنى المسافرين وقد أراد بهم الموتى، والمهل مصدر بمعنى الإمهال وطول الغيبة.

(٣) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ٢ ٨

هـــذا . وأما قوله تعالى : « بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبرا جميل »(١)

وقوله تعالى : « سورة أنزلناها »(٢) وقوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن ، قل لاتقسموا طاعة معروفة »(٣)

فكل منها يحتمل أن يكون من حذف المسند إليه، وأن يكون من حذف المسند ، أى فأمرى صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل ، وهذه سورة أنزلناها ، أو فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها ، وأمركم أو الذى يطلب منكم طاعة معروفة معلومة ، لايشك فيها ولا يرتاب ، كطاعة الخلص من المؤمنين الذين طابق باطن أمرهم ظاهره ، لا أيمان تقسمون بها بأفواهكم وقلوبكم على خلافها ، أو طاعتكم طاعة معروفة ، أى بأنها بالقول دون الفعل أو طاعة معروفه أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة(٤)

ومما يحتمل الوجهين أيضا ـ حذف المسند أو المسند إليه ـ قوله تعالى : « ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد »(٥)

فإنه يجوز فى الآية الكريمة أن يكون المحذوف هو المسند والتقدير ولا تقولوا لنا أو فى الوجود آلهة ثلاثة ، وتكون الجملة مكونة من مبتدأ هو آلهة وصفه هى قوله : ثلاثة وخبر مقدم هو « لنا فى الوجود » ثم حذف الخبر ، وحذفه مطرد فى كل معناه التوحيد

---

(١) يوسف ٨٣
(٢) النور ١
(٣) النور ٥٣
(٤) الإيضاح ٥٠
(٥) النساء ١٧١

مثل : لا إله إلا الله ، أى لا إله موجود إلا الله ، ثم حذف الموصوف وهو آلهة ، وحذف الموصوف واقع فى كلامهم ، فصار ولا تقولوا ثلاثة .

ويحتمل أن يكون من حذف المسند إليه ، والتقدير : ولا تقولوا الله والمسيح وأمه ثلاثة ، أى لا تعبدوهم كما تعبدون الله ، ولا تسووا بينهم فى الصفة والرتبة ، وذلك من قولهم إذا أرادوا التسوية بين اثنين هما اثنان أى متساويان فى الرتبة ، وإذا أرادوا إلحاق واحد باثنين قالوا هم ثلاثة.

وقد قيل إن التقدير فى الآية : ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة ، وهو قول فاسد وفيه خطأ كبير ، وبيان ذلك أنك إذا سلطت النفى على الجملة ، لا يتوجه النفى إلى أحد طرفيها ، وإنما يتوجه إلى الحكم القائم بين الطرفين ، وهذه قضية ثابتة . فإذا قلت : ليس زيد بمنطلق ، فأنت لم تنف زيداً ، ولم توجب عدمه ، وإنما تنفى إثبات معنى الإنطلاق لزيد . وإذا قلت ليس زيد النحوى عاقلا ، فأنت لم تنف عن زيد كونه نحويا وإنما نفيت عنه كونه عاقلا ، وإذا قلت : ليس أمراؤنا ثلاثة ، فأنت لم تنف أن لنا أمراء بل توجب ذلك وتثبته ، وإنما تنفى أن تكون عدتهم ثلاثة ، فإذا قلت : ليست آلهتنا ثلاثة ، فأنت لم تنف وجود الآلهة ، بل توجب ذلك وتقرره ، وإنما تنفى أن تكون عدتهم ثلاثة(١) .

يقول الإمام عبد القاهر : إنهم قد ذهبوا فى رفع «ثلاثة» إلى أنها خبر مبتدأ محذوف وقالوا إن التقدير « ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة ، وليس ذلك بمستقيم ، وذلك أنا إذا قلنا : ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة ، كان ذلك — والعياذ بالله — شبه الإثبات أن ههنا آلهة ، من حيث إنك إذا نفيت ، فإنما تنفى المعنى المستفاد من الخبر عن المبتدأ ، ولا تنفى معنى المبتدأ ، فإذا

---

(١) أنظر خصائص التراكيب ٢٢٣

قلت : مازيد منطلقا : كنت نفيت الانطلاق الذى هو معنى الخبر عن زيد، ولم توجب عدمه ». وإذا كان ذلك ، فإذا قلنا « ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة » كنا قد نفينا أن تكون عدة الآلهة ثلاثة ، ولم ننف أن تكون آلهة — جل الله تعالى عن الشريك والنظير — كما أنك إذا قلت : ليس أمراؤنا ثلاثة : كنت قد نفيت أن تكون عدة الآلهة ثلاثة ، ولم تنف أن يكون لكم أمراء ، هذا مالاشبهة فيه ، وإذا أدى هذا التقرير إلى هذا الفساد ، وجب أن يعدل عنه غيره .

والوجه — والله أعلم — أن تكون ثلاثة صفة مبتدأ ، ويكون التقدير : ولا تقولوا لنا آلهتنا ثلاثة ، أو فى الوجود آلهة ثلاثة ، ثم حذف الخبر الذى هو لنا أو فى الوجود ، كما حذف من «لا إله إلا الله» و«وما من إله إلا الله» فبقى : ولا تقولوا آلهة ثلاثة ، ثم حذف الموصوف الذى هو آلهة فبقى «ولا تقولوا ثلاثة» وليس فى حذف ما قدرنا حذفه ، ما يتوقف فى صحته ، أما حذف الخبر الذى قلنا إنه «لنا» أو «فى الوجود» فطرد فى كل ما معناه التوحيد ونفى أن يكون مع الله — تعالى عن ذلك — إله(١) .

هذا . والحذف لابد له من قرينة تدل عليه ، كأن يقع فى جواب سؤال محقق «ما وجدت صورته فى الكلام» كقوله تعالى : ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله(٢) .

والتقدير : نزله وأحيا به الأرض الله والقرينة : وقوعه فى جواب السؤال المذكورة صورته فى الكلام .

أو يقع فى جواب سؤال مقدر « مالم توجد له فى الكلام صورة »

---

(١) دلائل الإعجاز ٢٤٦

(٢) العنكبوت ٦٣

كقولة تعالى : يسبح له فيها بالغدو والآصال،(١) فى قراءة من بنى الفعل للمجهول ، والتقدير يسبحه — وكما ترى — فقد حذف المسند إلى « رجال » لوقوعه فى جواب سؤال مقدر ، وكأنه قيل من يسبحه ، فأجاب رجال ، أى يسبحه رجال .

وكقول ضرار بن نهشل فى رثاء أخيه يزيد :

لِيُبْكَ يزيدُ ضَارِعٌ لخصومة ومُختَبِطٌ مما تُطِيحُ الطوائحُ(٢)

يريد الشاعر : ليبكه ذليل فى الخصومة ، لأنه كان ملجأ للأذلاء ، وعونا للضعفاء ، وليبكه طالب للمعروف ، الذى أذهبت الأحداث ماله وما يملكه لأنه كان عون الفقراء والمعوزين .

فقد حذف المسند إلى ضارع ، والتقدير « يبكيه ضارع » والقرينة على المحذوف ، وقوعه فى جواب سؤال مقدر ، لأنه لما قال : « ليبك يزيد » ببناء الفعل للمجهول ، وقع إبهام فيه وكأن سائلا سأل من يبكيه ، فأجاب : ضارع ومختبط .

هذا . وقد فضل بناء الفعل للمجهول على بنائه للفاعل ، لأن بناءه للمجهول ، يفيد إسناد الفعل إلى الفاعل مرتين إجمالا ثم تفصيلا .

أما الإسناد التفصيلى فظاهر ، لأنه ذكر الفاعل المستحق للفعل بالتنصيص وهو ضارع وذلك معنى التفصيل .

---

(١) النور ٣٦ ، ٣٧

(٢) ليبك — بالبناء للمفعول ، ويزيد : نائب فاعله ، والضارع : الذليل ، المختبط : من يأتى مستجديا من غير وسيلة وتطيح : تذهب وتهلك ، والطوائح : جمع مطيحة على غير قياس

وأما الإجمالى فلأنه لما قيل دليبك ، علم أن هناك باكيا يسند إليه هذا البكاء ولم يسم ذلك الفاعل أولا ، وهو ولولم يقع بالفعل، لكن لما أشعر به الكلام صار كالواقع .

فإذا تحقق أن فى ذلك التركيب إسنادين، ولا شك أن التركيب المشتمل على إسنادين أوكد وأقوى مما ليس فيه إلا إسناد واحد ، وإذا تحقق أن فيه الإجمال ثم التفصيل فلاشك أن الإجمال ثم التفصيل أوقع فى النفس، لأن فى الإجمال تشويقا ، والغرض من الكلام تمكن معناه ليقع العمل بمقتضاه.

وأيضا : ففضله حاصل بكون معرفة الفاعل، كحصول نعمة غير مرتقبة، فهو كرزق من حيث لا يحتسب، والرزق من حيث لا يحتسب أيسر وأغرب(١)

تعريف المسند

يؤتى بالمسند معرفة لإفادة السامع حكما بأمر معلوم له ، على أمر آخر معلوم له بإحدى طرق التعريف ، سواء اتحد طريقا التعريف فيها كقولك «المتفوق المخلص» ، أو اختلفا كقولك «محمد المخلص» .

فقد يكون للشيء صفتان من صفات التعريف ، والمخاطب يعلم اتصافه بإحداهما دون الأخرى ، فتخبره باتصافه بها ، ومن ثم يجب تقديم المحكوم عليه وجعله مبتدأ وتأخير المحكوم به وجعله خبرا ، وذلك كقولك «على الخطيب» ، وبالتأمل فى المثال السابق نجد أن للذات صفتين من صفات التعريف ، إحداهما تسميته بـ «على» والثانية ووصفها «بالخطابة» ، فإذا عرف المخاطب «عليا» باسمه وشخصه ثم علم أن هناك «خطيبا» ذائع الصيت، ولكن لا يدرى أن «عليا» هو ذلك الخطيب . صار كأنه يطلب الحكم على «على» بوصف الخطابة، فتقول له حينئذ «على الخطيب» .

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ٢ — ١٧

وإذا علم أن هناك خطيبا مفوها ، ثم عرف شخصا بعينه يسمى «عليا» ولكن لا يدرى أن ذلك الخطيب ، هو هذا الشخص ، صار كأنه يطلب الحكم على الخطيب بأنه «على» فتقول له حينئذ «الخطيب على» ، وبهذا يتبين أن المحكوم عليه هو الواجب تقديمه .

يقول الإمام عبد القاهر : تقول مرة «زيد المنطلق» وأخرى «المنطلق زيد» فأنت فى هذا لم تقدم المنطلق على أن يكون متروكا على حكمه الذى كان عليه مع التأخير ، فيكون خبر مبتدأ كما كان ، بل على أن تنقله عن كونه خبرا إلى كونه مبتدأ ، وكذلك لم تؤخر زيدا على أن يكون مبتدأ كما كان، بل على أن تخرجه عن كونه مبتدأ إلى كونه خبر(١) .

هذا . وكون المسند والمسند إليه معلومين للمخاطب، لا ينافى إفادته أمرا مجهولا له هو الحكم بأحدهما على الآخر ، فالعلم بالطرفين ؛ لا يستلزم العلم بإسناد أحدهما للآخر .

هذا . والمعرف بلام الجنس قد يقصد به إفادة قصر المسند على المسند إليه.

يقول الإمام عبد القاهر : أعلم أنك إذا قلت «زيد منطلق» كان كلامك مع من لم يعلم أن إنطلاقا كان لا من زيد ، ولا من عمرو ، فأنت تفيده ذلك ابتداء .

وإذا قلت : زيد المنطلق . كان كلامك مع من عرف أن إنطلاقا كان إما من زيد ، وإما من عمرو ، فأنت تعلمه أنه كان من زيد دون غيره ، والنكتة : أنك تثبت فى الأول الذى هو قولك : زيد منطلق فعلا لم يعلم السامع من أصله أنه كان ، وتثبت فى الثانى الذى هو «زيد المنطلق» فعلا قد علم السامع أنه كان ولكنه لم يعلمه لزيد ، فأفدته ذلك .

---

(١) دلائل الإعجاز ٨٣

ومن الفرق بين المسألتين — وهو ما تمس الحاجة إلى معرفته — أنك إذا نكرت الخبر جاز أن تأتى بمبتدأ ثان ، على أن تشركه بحرف العطف فى المعنى الذى أخبرت به عن الأول ، وإذا عرفت لم يجز ذلك .

تفسير هذا : أنك تقول : زيد منطلق وعمرو ، تريد « وعمر منطلق أيضا » ولا تقول : زيد المنطلق وعمرو ، وذلك لأن المعنى مع التعريف على أنك أردت أن تثبت إنطلاقا مخصوصا ، قد كان من واحد، فإذا أثبته لزيد لم يصح إثباته لعمرو ، ثم إن كان قد كان ذلك الانطلاق من اثنين ، فإنه ينبغى أن تجمع بينهما فى الخبر ، فتقول : زيد وعمرو هما المنطلقان ، لا أن تفرق ، فتثبته أولا لزيد ، ثم تجىء فتثبته لعمرو »(١).

والقصر بأل الجنسية يأتى على نوعين :

حقيق : كقولك « خالد القائد » إذا لم يكن ثم قائد سواه ، فيؤتى بالمسند معرفا « بأل » لنكتة هى قصر الشاعرية على محمد على قصراً حقيقيا .

وإدعائى : كقولك « محمد الكريم » إذا كان ثم كريم غيره ، ولكن الكرم فى « محمد » أكمل وأتم ، فيؤتى بالمسند معرفا ، لقصد قصر الكرم على « محمد » قصراً إدعائيا مبالغة فى إتصافه بالكرم ، بمعنى أنه بلغ فيه منزلة لم يصل إليها أحد سواه .

يقول الإمام عبد القاهر : أعلم أنك تجد الألف واللام فى الخبر على معنى الجنس ثم ترى له فى ذلك وجوها :

أحدها : أن تقصر جنس المعنى على المخبر عنه لقصدك المبالغة وذلك قولك : زيد هو الجواد ، وعمرو هو الشجاع ، تريد أنه الكامل ، إلا أنك

---

(١) دلائل الإعجاز ١١٨

تخرج الكلام فى صورة توهم أن الجواد أو الشجاعة لم توجد إلا فيه ، وذلك لأنك لم تعتد بما كان من غيره ، لقصوره عن أن يبلغ الكمال ، فهذا كالأول فى إمتناع العطف عليه للإشراك فلو قلت : زيد هو الجواد وعمرو : كان خلفا من القول .

والوجه الثانى أن تقصر جنس المعنى الذى تفيده بالخبر على المخبر عنه ، لا على معنى المبالغة ، وترك الاعتداد بوجوده فى غير المخبر عنه ، بل على دعوى أنه لا يوجد إلا منه ، ولا يكون ذلك إلا إذا قيدت المعنى بشيء يخصصه ويجعله فى حكم نوع برأسه .

وذلك كنحو : أن يقيد بالحال والوقت ، وكقولك : هو الوفى حين لا تظن نفس بنفس خيراً ، وهكذا إذا كان الخبر بمعنى يتعـــدى ، ثم اشترطت له مفعولا مخصوصا كقول الأعشى :

هُوَ الواهبُ المائةَ المصطفاةَ إما مَخاضًا وإما عِشارًا(١)

فأنت تجعل الوفاء فى الوقت الذى لا يفى فيه أحد نوعا خاصا من الوفاء ، وكذلك تجعل هبة المائة من الإبل نوعا خاصا ، وكذا الباقى ، ثم إنك تجعل كل هذا خبرا على معنى الاختصاص وإنه للمذكور دون من عداه(٢) .

هذا . وتعريف المسند بلام الجنس ، قد لا يفيد قصره على المسند إليه كقول الخنساء :

إذا قَبُحَ البكاءُ على قتيلٍ رأيت بكاءك الحسنَ الجميلا

---

(١) المخاض : الحوامل من النوق اسم جمع ، والعشار : جمع عشراء : التى مضى على حملهـــا عشرة أشهر وقيل العشراء من الإبل كالنفساء من النساء .

(٢) دلائل الإعجاز ١١٩

فليس المراد قصر جنس الحسن على بكائه ، بل المراد أن البكاء عليه حسن لا قبيح ، والعدول عن التنكير إلى التعريف للإشارة إلى أن حسن البكاء عليه أمر معلوم لا ينكره أحد .

يقول الإمام عبد القاهر : « والوجه الثالث » أن لا يقصد قصر المعنى فى جنسه على المذكور لا كما كان فى « زيد هو الشجاع » تريد أن لا تعتد بشجاعة غيره ، ولا كما ترى فى قوله : هو الواهب المائة المصطفاة ، لكن على وجه ثالث ، وهو الذى عليه قول الخنساء .

لم ترد أن ما عدا البكاء فليس بحسن ولا جميل ، ولا تقيد الحسن بشىء ، فيتصور أن يقصر على البكاء ، كما قصر الأعشى هبة المائة على الممدوح ، ولكنها أرادت أن تقره فى جنس ما حسنه الحسن الظاهر ، الذى لا ينكره أحد ، ولا يشك فيه شاك(١) .

تنكير المسند

يؤتى بالمسند منكراً لأغراض بلاغية منها :

١ — عدم وجود موجب للتعريف ، بمعنى عدم إرادة التعيين أو القصر ، كقولك المنفلوطى كاتب ، وشوقى شاعر ، فالمراد ثبوت الكتابة للمنفلوطى ، والشعر لشوقى .

٢ — التفخيم والتعظيم كقوله تعالى « لا ريب فيه هدى للمتقين »(٢) أى هو هدى .

يقول ابن يعقوب : ويكون للتفخيم أى التعظيم نحو قوله تعالى :

---

(١) دلائل الإعجاز ١٢٠ (٢) البقرة ٢

« هدى للمتقين » بناء على أنه خبر ذلك الكتاب ، أو خبر مبتدأ محذوف أى هو هدى للمتقين ، فالتنكير للدلالة على فخامة هداية الكتاب وكمالها ، وقد أكد ذلك التفخيم بكونه مصدراً مخبراً به عن الكتاب المفيد أنه نفس الهداية مبالغة ، وأما إن أعرب حالا ، فهو خارج عن الباب ولو كان التنكير فيه للتفخيم أيضا(١) .

٣ - التحقير كقولك : الحاصل لى من هذا المال شىء أى حقير .

وغير ذلك من الأغراض التى يدركها ذو الطبع المستقيم والذوق السليم .

تقديم المسند

يؤتى بالمسند مقدما على المسند إليه لأغراض بلاغية منها :

١ - أن يقصد قصر المسند إليه على المسند ، كقولك « مسلم أنا » فالمتكلم مقصور على دين الإسلام ، لا يتجاوزه إلى دين آخر من الأديان قصر موصوف على صفة . وقوله تعالى « لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون »(٢) .

يقول الزمخشرى : المعنى لا فيها فساد قط من أنواع الفساد التى تكون فى شرب الخمر من مغص أو صداع أو عربدة أو لغو أو تأثيم أو غير ذلك ، ولا هم يسكرون ، وهو أعظم مفاسدها ، فأفرزه وأفرده بالذكر(٣) .

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ٢ - ٩١

(٢) الصافات ٤٧

(٣) الكشاف جـ ٣ - ٣٤٠

وكما ترى ، فعدم الغول فى الآية الكريمة ، مقصور على خمور الجنة ، لا يتجاوزه إلى خمر الدنيا ، من قصر الموصوف على الصفة .

يقول الشيخ الدسوقى : ذكر الإتصاف إشارة إلى أنه من قصر الموصوف على الصفة ، فعدم الغول موصوف ، والصفة التى قصر عليها ، هى الكون فى خمور الجنة(١) .

وقول أبى العلاء المعرى :

تَعَبٌ كُلُّهَا الحياةُ فما أَعْجَـ ـبُ إلا مِنْ رَاغِبٍ فى ازْدِيادِ

يريد : إنى لأعجب من حرص الإنسان على طول بقائه فى الحياة ، مع أنها كلها متاعب وآلام .

فقد قدم المسند وهو « تعب » على المسند إليه ، وهو « الحياة » لإفادة أن الحيــاة بجميع أنواعها مقصورة على التعب والشقاء ، قصر موصوف على صفة .

٢ ــ التنبيه من أول الأمر ، على أن المسند خبر لا نعت ، كقول حسان بن ثابت :

لَهُ هِمَمٌ لا مُنْتَهَى لِكِبَارِها
وهِمَّتُهُ الصغرى أجلُّ مِنَ الدَّهْرِ(٢)

يريد أن هممه العالية ، لا يحصيها العد ، وأن همته الصغرى ، فوق همة الدهر فالدهر على عظيم خطره ، لا يحول دون إرادته .

---

(١) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص جـ ٢ ــ ١١٩

(٢) قيل إنه لبكر بن النطاح ــ والهمم مفردها همة بالكسر وتفتح وهى ما هم به من أمر ليفعل .

. . . – وكما ترى – فقد قدم الشاعر المسند «له» للتنبيه من أول وهلة على أنه خبر لهم ، لانعت له ، إذ لو تأخر لتوهم أنه نعت ، وأن الخبر سيذكر بعد ذلك ، لأن حاجة النكرة إلى النعت أشد من حاجتها إلى الخبر .

يقول صاحب المطول : فإنه لو أخر الظرف أعني « له » عن المبتدأ أعنى « هم » لتوهم أنه نعت لا خبر(١) .

٣ – التشويق إلى ذكر المسند إليه ، وذلك بأن يكون في المسند ما يشوق النفس إلى ذكره .

كقول أبي العلاء المعري :

وكالنارِ الحياةُ فمِنْ رَمادٍ
أواخِرُها وأولُها دُخانُ

فالشاعر يشبه الحياة بالنار فى كونها تبدأ دخانا ، ثم تقوى فتصير لهيبا ثم تخمد فتستحيل إلى رماد . وهكذا شأن الإنسان يولد طفلا ضعيفا ثم يصير شابا يافعا ثم يهرم فيعود كما بدأ ضعيفا ، وإذا كان أول الحياة وآخرها ليسا بشيء ، فوسطها وهو الشباب هو المعتد به .

وقد قدم الشاعر المسند « كالنار » ليفيد التشويق إلى ذكر المسند إليه .

وكقول الشاعر :

ثلاثةٌ يجهلُ مقدارُها الأمنُ والصحةُ والقوتُ

---

(١) المطول ١٨٠

وقول الآخر :

ثلاثةٌ ليس لها إيابُ الوقتُ والجمالُ والشبابُ

٤ ـ التفاؤل : كقول الشاعر :

سُعِدَتْ بِغُرّةِ وجهــك الأيامُ
وتَزَيَّنتْ ببقائِــك الأَعْـوامُ

فقد قدم المسند « سعدت » ليكون أول شيء يطرق سمع المخاطب فيدخل على نفسه الأنس والبهجة والسرور .

يقول الشيخ الدسوقي : لا يقال هذا لمسند فعل يجب تقديمه على فاعله، فليس تقديمه للتفاؤل . إذ لا يقال في المسند قدم لغرض كذا ، إلا إذا كان جائز التأخير على المسند إليه، لأنا نقول : التمثيل مبني على مذهب الكوفيين المجوزين لتقديم الفاعل على الفعل ، أو يقال : إن الفعل هنا يجوز تأخيره في تركيب آخر، بأن يقال : الأيام سعدت بغرة وجهك ، على أنه من باب الإخبار بالجملة ، لا على أن يكون فعلا فاعله تقدم عليه ، فتقديم سعدت في هذا التركيب المؤدي إلى كون المسند إليه فاعلا ، مع صحة تأخيره باعتبار تركيب آخر لأجل ما ذكر من التفاؤل، بخلاف لو أخر «سعدت» بالنظر للتركيب الآخر فلا يكون فيه تفاؤل(١) .

ومن التقديم للتفاؤل قولك للمريض «في عافية أنت» وقولك «في تحسن صحتك» .

٥ ـ التطير : لقصد تعجيل الإساءة كقولك لخصمك « ضاعت مساعيك » .

(١) حاشية الدسوقي ، ضمن شروح التلخيص حـ ٢ ـ ١١٥

٦ – إظهار التألم : كقول المتنبي :

وَمِنْ نَكَدِ الدنيا على الحرّ أن يَرَى
عدواً له ما مِنْ صَدَاقَتِهِ بدّ(١)

يريد : من نكد الدنيا وقلة خيرها ، أن الحر يحتاج فيها إلى إظهار صداقة عدوه ليأمن شره ، وهو يعلم أنه عدوه ، وهو لا يجد بدا من أن يريه الصداقة من نفسه ، دفعا لغائلته .

– وكما ترى – فقد قدم الشاعر المسند لإظهار التألم مما يعانيه .

---

(١) « أن يرى » في موضع رفع مبتدأ ، « بد » اسم « ما » المشبهة بليس ، والجار والمجرور في موضع الخبر – انظر ديوان المتنبي بشرح العكبري ١ – ٣٧٥ .

أحوال متعلقات الفعل

الكلام عن متعلقات الفعل يتناول ثلاثة مباحث هى .

١ — حذف المفعول به .

٢ — تقديم المعمول على العامل .

٣ — تقديم بعض المعمولات على بعض .

حذف المفعول به

الفعل المتعدى إذا أسند إلى فاعله، ولم يذكر له مفعول، فلا يخلو الحال من أحد أمرين :

الأول : أن يكون الغرض مجرد إسناد الفعل إلى الفاعل ، دون اعتبار تعلقه بمفعول ، وحينئذ يكون الفعل المتعدى بمنزلة اللازم .

وهذا الفعل نوعان :

(أ) أن يذكر الفعل ، ولا ينوى له فى النفس مفعول أصلا، بأن يكون الغرض إثبات الفعل فى نفسه أو نفيه، كقوله تعالى : «وأنه هو أضحك وأبكى، وأنه هو أمات وأحيا»(١) .

وقوله تعالى « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »(٢) ، أى من يحدث له معنى العلم ومن لا يحدث :

يقول الشيخ الدسوقى : الغرض نفى المساواة بين من أهل العلم ، وبين

---

(١) النجم ٤٣ ، ٤٤

(٢) الزمر ٩

من ليس من أهل العلم ، لا بين من من هو أهل علم مخصوص ، وبين من هو ليس من أهل العلم المخصوص ، فلذلك نزل الفعل منزلة اللازم(١) .

وقوله تعالى : « ولما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال ما خطبكما ، قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما »(٢) .

فقد حذف المفعول فى مواضع عدة « يسقون ، وتذودان ، ونسقى ، وسقى » لأن القصد إسناد الفعل إلى الفاعل دون تعلقه بالمفعول .

ومن هذا النوع قولهم : فلان يأمر وينهى ، ويحل ويعقد ، فالغرض إثبات الفعل فى ذاته .

يقول الإمام عبد القاهر : اعلم أن أغراض الناس تختلف فى ذكر الأفعال المتعدية فهم يذكرونها تارة ، ومرادهم أن يقتصروا على إثبات المعانى التى اشتقت منها للفاعلين من غير أن يتعرضوا لذكر المفعولين ، فإذا كان الأمر كذلك ، كان الفعل المتعدى كغير المتعدى مثلا ، فى أنك لا ترى له مفعولا لا لفظا ولا تقديرا ، ومثال ذلك قول الناس فلان يحل ويعقد ، ويأمر وينهى ، ويضر وينفع ، وكقولهم : هو يعطى ويجزل ، ويقرى ويضيف ، المعنى فى جميع ذلك على إثبات المعنى فى نفسه للشىء على الإطلاق وعلى الجملة من غير أن يتعرض لحديث المفعول ، حتى كأنك قلت : صار إليه الحل والعقد ، وصار بحيث يكون منه حل وعقد ، وأمر ونهى ، وضر ونفع ، وعلى هذا القياس ، وعلى ذلك قوله تعالى « قل هل يستوى الذين

---

(١) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص جـ٢ ـ ١٢٣

(٢) القصص ٢٣ ، ٢٤

يعلمون والذين لا يعلمون» المعنى : هل يستوى من له علم ، ومن لا علم له ، من غير أن يقصد النص على معلوم .

وكذلك قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا» وقوله «وأنه هو أغنى وأقنى »(١) ، المعنى هو الذى منه الإحياء والإماتة ، والإغناء والإقناء ، وهكذا ، كل موضع كان القصد فيه أن يثبت المعنى فى نفسه فعلا للشيء وأن يخبر بأن من شأنه أن يكون منه ، أو لا يكون إلا منه . أو لا يكون منه ، فإن الفعل لا يعدى هناك ، لأن تعديته تنقض الغرض ، وتغير المعنى(٢) .

(ب) أن يذكر الفعل ، وينوى له فى النفس مفعول خاص ، قد علم موضعه ، بيد أنك لا تذكره قصدا إلى المبالغة كقول البحترى يمدح المعتز بالله :

شَجْوُ حُسَّادِهِ وغيظُ عِداهُ أن يَرَى مُبْصِرٌ ويسمعَ واعِ(٣)

يريد : إذا أبصر مبصر لا يرى إلا محاسن الممدوح ، وإذا سمع سامع لم يسمع إلا آثاره ، فغيظ أعدائه أن يقع إبصار أو سمع ، فإنه كيف وقع لا يقع إلا على محاسنه .

— وكما ترى — قد عمد الشاعر إلى تنزيل الفعلين منزلة اللازم ، فلم يذكر مفعوليهما إشعارا بأن محاسن الممدوح قد بلغت من الوضوح والاشتهار حدا لا تخفى عنده على ذى بصر وسمع .

يقول صاحب المطول : الحاصل أنه نزل يرى ويسمع منزلة اللازم ؛

---

(١) النجم ٤٨
(٢) الإعجاز ١٧٦
(٣) الشجو : الحزن ، والعدى : جمع عدو ، أن يرى : خبر عن شجو حساده

أى يصدر منه الرؤية والسماع ، من غير تعلق بمفعول مخصوص . . دلالة على أن آثاره وأخباره بلغت من الكثرة والاشتهار، إلى حيث يمنع خفاؤها فيبصرها كل راء ، ويسمعها كل واع ، بل لا يبصر الرائى إلا آثاره ، ولا يسمع الواعى إلا أخباره(١) .

يقول الإمام عبد القاهر : وقسم ثان : وهو أن يكون له مفعول مقصود ، قصده معلوم ، إلا أنه يحذف من اللفظ لدليل الحال عليه ، وينقسم إلى جلى لا صنعة فيه وخفى تدخله الصنعة ، فمثال الجلى قولهم : أصغيت إليه ، وهم يريدون أذنى ، وأغضيت عليه ، والمعنى جفنى .

وأما الخفى الذى تدخله الصنعة فيتفنن ويتنوع : فنوع منه ، أن تذكر الفعل وفى نفسك له مفعول مخصوص ،قد علم مكانه ، إما لجرى ذكره أو دليل حال ، إلا أنك تنسيه نفسك وتخفيه ، وتوهم أنك لم تذكر ذلك الفعل ، إلا لأن تثبت نفس معناه ، من غير أن تعديه إلى شيء ، أو تعرض فيه لمفعول ، ومثاله قول البحترى .

المعنى لا محالة : أن يرى مبصر محاسنه ، ويسمع واع أخباره وأوصافه ، ولكنك تعلم على ذلك أنه كان يسرق علم ذلك من نفسه ، ويدفع صورته عن وهمه ، ليحصل له معنى شريف وغرض خاص .

وقال إنه يمدح خليفة هو المعتز ، ويعرض بخليفة وهو المستعين ، فأراد أن يقول : إن محاسن المعتز وفضائله .. يكفى فيها أن يقع عليها بصر ويعيها سمع ، حتى يعلم أنه المستحق للخلافة ، والفرد الوحيد الذى ليس لأحد أن ينازعه مرتبتها ، فأنت ترى حساده ، وليس شيء أشجى لهم وأغيظ من علمهم بأن ههنا مبصرا يرى ، وسامعا يعى ، حتى ليتمنون أن لا يكون فى الدنيا من له عين يبصر بها ، وأذن يعى معها ، كى يخفى مكان استحقاقه لشرف الإمامة ، فيجدوا بذلك سبيلا إلى منازعته إياها(٢) .

---

(١) المطول ١٩٣ (٢) دلائل الإعجاز ١٧٨

والأمر الثانى أن يقصد تعلق الفعل بمفعول ، وأن يراعى فى الكلام ويلتفت إليه ، وحينئذ يجب تقدير هذا المفعول بحسب القرينة الدالة عليه .

وإذا وجب تقدير المفعول ، تعين أنه مراد وأنه حذف لغرض من الأعراض ومن ثم لحذف المفعول مقيد بوجود القرينة الدالة عليه ، والغرض الموجب للحذف .

هذا . والأغراض البلاغية الموجبة لحذف المفعول به كثيرة منها :

١ ــ البيان بعد الإبهام : وذلك فى فعل المشيئة وقع شرطا ، ولم يكن تعلقه بالمفعول غريبا، كقوله تعالى : فلو شاء لهداكم أجمعين»(١) وقوله تعالى: فإن يشأ الله يختم على قلبك (٢) . وقوله تعالى « من يشأ الله يضلله » (٣) وقوله تعالى : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (٤) .

ــ وكما ترى ــ فقد حذف مفعول المشيئة من هذه الآيات لقصد البيان بعد الإبهام ، أو التفصيل بعد الإجمال .

يقول صاحب المطول : أى لو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين ، فإنه متى قيل لو شاء علم أن هناك شيئا قد علقت المشيئة عليه ، لكنه مبهم عنده ، فإذا جيء بجواب الشرط صار مبينا له وهذا أوقع فى النفس (٥)

وكقول البحترى :

لو شئت لم تفسد سماحه حاتم كرما ولم تهدم مآثر خالد (٦)

---

(١) الأنعام ١٤٩ (٢) الشورى ٢٤

(٣) الأنعام ٣٩ (٤) الكهف ٢٩

(٥) المطول ١٩٣

(٦) المراد بحاتم : حاتم الطائى ، وبخالد : خالد بن اصبع النبهانى الذى عليه امرؤ القيس

يريد الشاعر : أن الممدوح قد بلغ فى الكرم والمجد درجة فاقت شهرة حاتم وخالد .

وقد حذف مفعول فعل المشيئة ، والأصل : لو شئت عدم إفساد سماحة حاتم ، أو عدم هدم مآثر خالد لم تفسد ذلك ولم تهدم .

يقول الإمام عبد القاهر : الأصل لا محالة: لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ثم حذف لك من الأول استغناء بدلالته فى الثانى عليه ، ثم هو على ماتراه وتعلمه من الحسن والغرابة ، وهو على ما ذكرت لك من أن الواجب فى حكم البلاغة أن لا ينطق بالمحذوف ، ولا يظهر إلى اللفظ. فليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ماهو أصله ، فقلت: لو شئت أن تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ، صرت إلى كلام غث وإلى شىء يمجه السمع وتعافه النفس .

وذلك أن فى البيان إذا ورد بعد الإبهام ، وبعد التحريك له أبدا لطفا ونبلا لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك . وأنت إذا قلت : لو شئت : علم السامع أنك قد علقت هذه المشيئة فى المعنى بشىء ، فهو يضع فى نفسه أن هنا شيئا تقتضى مشيئته له أن يكون أو لا يكون . فإذا قلت : لم تفسد سماحة حاتم عرف ذلك الشىء (١) .

هذا . وإن كان فى تعلق فعل المشيئة بالمفعول غرابة ، لم يحسن حذف المفعول حينئذ ، لأن الجواب لا يدل عليه لغرابته ، وإنما ينبغى ذكره ليتقرر فى ذهن مسامع ويأنس به كقول الشاعر يرثى ابنه (٢) .

ولو شئتُ أن أبكى دما لبكيتُهُ عليه ولكنْ ساحةُ الصَّبرِ أوسعُ

---

(١) دلائل الإعجاز ١٨٤

(٢) قيل إنه للخزيمى ، وقيل إنه لأبى الهندام يرثى ابنه الهندام

يريد : لقد أصابنى من الحزن والأسى ما يوجب بكاء الدم عليه ، بيد أنه قد أعاننى على تركه الصبر الجميل .

ولم يحذف الشاعر مفعول فعل المشيئة « أن أبكى » لغرابة تعلق الفعل ببكاء الدم ومن ثم فقد ذكر المفعول ليتقرر فى نفس السامع ويأنس به .

يقول الإمام عبد القاهر : سبب حسنه أنه كأنه بدع عجيب أن يشاء الإنسان أن يبكي دما ، فلما كان الأولى أن يصرح بذكره ليقرره فى نفس السامع ويؤنسه به .

وإذا استقريت وجدت الأمر كذلك أبدا ، متى كان مفعول المشيئة أمرا عظيما أو بديعا غريبا كان الأحسن أن يذكر ولا يضمر .

يقول الرجل يخبر عن عزة نفسه « لو شئت أن أرد على الأمير رددت ، ولو شئت أن ألقى الخليفة كل يوم لقيت ، فإذا لم يكن مما يكبره السامع فالحذف ، كقولك: لو شئت خرجت ، ولو شئت قمت ، ولو شئت أنصفت ، ولو شئت لقلت (١)

٢ — دفع توهم غير المراد ابتداء ، كقول البحترى :

وكم ذُدتَ عَنِّى من تَحَامُلِ حادثٍ وسورةِ أيامٍ حَزَزْنَ إلى العظمِ

يريد إنك كثيرا مادفعت عنى ظلم الزمان ، ورددت عنى طغيان الأيام التى بلغت نهايتها فى القسوة .

وقد حذف الشاعر مفعول «حززن» وهو اللحم ، ليدفع من أول الأمر ، ماقد يتبادر إلى ذهن السامع ، قبل ذكر مابعده ، أن الحزكان فى بعض اللحم ، ولم يصل إلى العظم وهذا غير مراد الشاعر ، إنما المراد

---

(١) دلائل الإعجاز ١٨٥

أن الحز جارز اللحم إلى العظم ، فدفعا لتوهم غير المراد حذف المفعول به ، ليدل الكلام على المراد من أول الأمر .

يقول الشيخ الدسوقى حريص على بيان كون مادفعه الممدوح من سورة الأيام بلغ إلى العظم لأبلغيته فى الشدة ، بحيث لا يخالج قلب السامع خلاف ذلك أصلا ، ولو فى الابتداء لأن ذلك أصلا ولو فى الابتداء لأن ذلك أوكد فى تحقيق إحسان الممدوح ، حيث دفع ماهو بهذه الصفة (١).

كما يقول الإمام عبد القاهر مشيدا بحذف المفعول به فى قول البحترى :

الأصل لا محالة حززن اللحم إلى العظم ، إلا أن مجيئه به محذوفا ، وإسقاطه له من النطق ، وتركه فى الضمير مزية عجيبة ، وفائدة جليلة ، ذالا أن من حذق الشاعر أن يوقع فى المعنى فى نفس السامع إيقاعا يمنعه به من أن يتوهم فى بدء الأمر شيئا غير المراد ثم ينصرف إلى المراد . ومعلوم أنه لو أظهر المفعول ، فقال « وسورة أيام حززن اللحم إلى العظم » لجاز أن يقع فى وهم السامع إلى أن يجىء إلى قوله «إلى العظم» أن هذا الحز كان فى بعض اللحم دون كله ، وأنه قطع مايلى الجلد ، ولم ينته إلى مايلى العظم فلما كان كذلك ترك ذكر اللحم ، وأسقطه من اللفظ ، ليبرىء السامع من هذا ، ويجعله بحيث يقع المعنى منه أنف الفهم (٢) ويتصور فى نفسه من أول الأمر أن الحز مضى فى اللحم حتى لم يرده إلا العظم (٣) .

---

(١) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص حـ ٢ — ١٣٨

(٢) أنف الشىء أوله

(٣) دلائل الإعجاز ١٩٠

٣ — إفادة التعميم مع الاختصار ، كقوله تعالى « والله يدعو إلى دار السلام » (١) أى يدعو جميع المكلفين ، وقولك لآخر « قد كان منك مايؤلم» أى كل أحد ، فقد حـذف المفعول لغرض إفادة العموم بقرينة المقام ، بأن الإيلام عام ، وأنه لايختص به فرد دون آخر ، بل الكل فى معاناه الألم سواء .

هذا . والآية الكريمة تفيد العموم تحقيقا، لأن الدعوة إلى الجنة تنتظم الناس جميعا .

أما المثال فيفيده مبالغة لأن إيلام كل أحـد من شخص واحد محال عادة على وجه الحقيقة .

يقول ابن يعقوب : عنـــد كون المقام مقام المبالغة فى الوصف بالإيلاف ، فيكون ذلك المقام قرينة على إفادة العموم فى ذلك المفعول كما قدر ، لأنه ليس المراد مايؤلمنى ، أو يؤلم بعض الناس ، أو نحو ذلك» وهذا التعميم معلوم أنه يوجد بذكر المفعول عاما ، ولكن يفوت مع الذكر الاختصار الموجود فى الحذف (٢) .

٤ — استهجان التصريح بالمفعول ، كقول عائشة رضى الله عنها : « ما رأيت منه ولا رأى منى » تعنى العورة (٣)

هذا . وقد يكون الحذف إشاره إلى تأكيد الأمر بوجوب ستر العورة ليتوافق الستر اللفظى مع الستر الحس .(٤)

---

(١) يونس ٢٥

(٢) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص حـ ٢ — ١٤٠

(٣) المفتاح ١١٠

(٤) حاشية الدسوقى حـ ٢ — ١٤٤

٥ – الاحتراز عن مواجهة الممدوح بما لا يليق ، كقول البحترى يمدح المعتز بالله :

قد طَلَبنا فلم نجِدْ لكَ فى السُّؤ دَدِ والمجدِ والمكارِمِ مثلا (١)

يريد البحترى : إنا قد بحثنا عن شبيه لك ، فى كرم الصفات ، وحميد السجايا فلم نجد ، فأنت وحيد دهرك ، وفريد نسجك .

– وكما ترى – فقد حذف الشاعر مفعول « طلبنا » للاحتراز عن مواجهة الممدوح بأن له « مثلا » مبالغة فى تأدبه معه ، تعظيما له . ولو ذكر الشاعر المفعول فقال قد طلبنا مثلا لك لأشعر ذلك بجواز أن يكون له مثل ، لأن العاقل لا يطلب إلا ما يجوز وجوده .

يقول صاحب المطول : أى قد طلبنا لك مثلا ، فحذف المفعول من اللفظ ، إذ لو ذكره لكان المناسب فى قوله « لم نجد » الإتيان بضميره ، أى فلم نجده ، وفيه تفويت للغرض ، وهو إيقاع نفى الوجدان على صريح لفظ المثل ، لكمال العناية بعدم وجدان مثل له(٢) .

كما يقول الإمام عبد القاهر : المعنى قد طلبنا لك مثلا ، ثم حذف ، لأن ذكره فى الثانى يدل عليه ، ثم إن فى المجىء به كذلك من الحسن والمزية والروعة مالا يخفى ، ولو أنه قال : طلبنا لك فى السؤدد والمجد والمكارم مثلا ، فلم نجده ، لم ترمن هذا الحسن الذى تراه شيئا .

وسبب ذلك أن الذى هو الأصل فى المدح والغرض بالحقيقة هو نفى الوجود عن المثل ، فأما الطلب ، فكالشىء يذكر ليبنى عليه الغرض ،

---

(١) المثل الشبيه والنظير والسؤدد : السيادة

(٢) المطول ١٩٦

ويؤكد به أمره ، وإذا كان هذا كذلك ، فلو أنه قال : قد طلبنا لك فى التودد والجد والمكارم مثلا فلم نجد ، لكان يكون قد ترك أن يوقع نفى الوجود على صريح لفظ المثل ، وأوقعه على ضميره ، ولن تبلغ الكناية مبلغ الصريح أبدا (١) .

(٦) رعاية الفاصلة فى النثر ، أو الوزن فى الشعر ، كقوله تعالى : « والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وماقلى »(٢) أى وما قلاك .

يقول ابن يعقوب : « لم يقل وماقلاك رعاية لختم هذه الفاصلة بالألف ، كما قبلها ومابعدها ... وقيل إن الحذف هنا لترك مواجهة النبى ﷺ بإيقاع لفظ « القلى » على ضميره ولو كان منفيا »(٣) .

كما يقول صاحب الكشاف : « حذف الضمير من قلى ، كحذفه من الذاكرات فى قوله : « والذاكرين الله كثيرا والذاكرات »(٤) يريد والذاكراته ، ونحوه : فآوى — فهدى — فأغنى وهو اختصار لفظى(٥) .

ويعلق الشيخ الدسوقى ، على ماقاله العلماء فى بيان وجه الحذف فى الآية الكريمة لامدافعة بين ماذكره المصنف وقول الكشاف أن الحذف فى هذه الآية للاختصار إذ لاتزاحم فى النكات ، فيجوز اجتماع عدة من الأغراض .

---

(١) دلائل الإعجاز ١٨٧

(٢) الضحى ١ ، ٢ ، ٣

(٣) مواهب الفتاح ج ٢ — ١٤٣

(٤) الأحزاب ٣٥

(٥) الكشاف ج ٤ — ٢٦٣

فى مثال واحد، وذكر السيد الصفوى ، وجها أحسن مما ذكره المصنف والكشاف فى الآية الكريمة ، وهو ترك مواجهته عليه الصلاة والسلام بإيقاع « قلى » الذى معناه أبغض على ضميره ، وإن كان منفيا ، لأن النفى فرع الإثبات فى التعقل ، ولم يفعل ذلك فى « ودعك » بل أوقع على ضميره عليه السلام ، لأن لفظ « ودع » ليس كلفظ « قلى » لأن لفظ « ودع » معناه « ترك » ، وهو لا يستلزم البغض(١).

هذا . ولا يخفى أن القرآن الكريم حين يراعى الفاصلة ، ويبقى على تنغيمها ، إنما يحفظ وسيلة من أقوى وسائله فى التأثير ، لأن رنين الكلمات وجرسها ، وتوافق إيقاعاتها لغة تتغلغل فى النفس والضمير ، وتسمو بالروح إلى آفاق قدسية ، فتأخذها نشوة يحسها من يرتل هذه الآيات(٢) .

والمحافظة على الوزن كقول المتنبى :

بناها فأعلى والقنا يقرعُ القنا ... ومَوْجُ المنايا حولَها متلاطِمُ

يريد : بنى سيف الدولة القلعة ، وأذل الروم بالإيقاع بهم ، وقهرهم بالاستيلاء عليهم بعد أن تقارع القنا فى حربهم ، وتلاطم موج الموت فى فى منازلتهم .

فقد حذف الشاعر المفعول ، والتقدير فأعلى بناءها ، للمحافظة على وزن البيت .

إلى غير ذلك من الأغراض التى يدركها اللبيب ، وتفهم من فحوى الكلام .

---

(١) حاشية الدسوقى جـ٢ — ١٤٣

(٢) انظر خصائص التراكيب ٢٨٧

تقديم المعمول على العامل

الأصل فى العامل أن يتقدم على معموله ، وقد ينعكس الأمر ، فيقدم المعمول على العامل لأغراض بلاغيه منها :

١ـ التخصيص : كقوله تعالى «إياك نعبد وإياك نستعين»(١) فالمعنى نخصك بالعبادة والاستعانة ، لانعبد غيرك ، ولا نستعين بسواك .

يقول الزمخشرى: تقديم المفعول لقصد الاختصاص .. والمعنى نخصك بالعبادة ونخصك بطلب المعونة(٢) .

كما يقول الشيخ الدسوقى : أى نجعلك دون كل موجود مخصوصا بالعبادة والاستعانة على جميع المهمات ، أوعلى أداء العبادة ، وهذا المعنى يفيد أن التقديم للاختصاص(٣).

وقوله تعالى : «ولئن متم أوقتلتم لإلى الله تحشرون»(٤) أى إليه لا إلى غيره .

يقول الشيخ الدسوقى : التقديم للاختصاص .. واستفيد مما تقرر أن لا عبادة ، وأن لا استعانة لغيره ، وأن لا حشر لغيره واعلم أن الاختصاص والقصر بمعنى واحد عند علماء المعانى(٥) .

ومن ثم فإنه لا يصح أن تقول فى مقام الرد على من اعتقد أنك أكرمت محمدا «ما محمدا أكرمت ولا غيره» ، لأن تقديم المفعول يفيد وقوع الإكرام

---

(١) الفاتحة ٥ (٢) الكشاف جـ١ ـ ٦١

(٣) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص جـ٢ ـ ١٥٢

(٤) آل عمران ١٥٨ (٥) حاشية الدسوقى جـ٢ ـ ١٥٣

على غير محمد ، قضاء لحق الاختصاص ، وقولك « ولا غيره » ينفى وقوع الإكرام على غير محمد ، فيكون منطوق « ولا غيره » مناقضا لمفهوم « ما محمدا أكرمت » ، وهذا فاسد ولذلك فالصواب أن يقال : ما محمدا أكرمت .

وكذلك لا يصح أن تقول : « ما زيدا أهنت لكن أكرمته » فى مقام الرد على من اعتقد أنك أهنت زيدا ، لأن تقديم المفعول يفيد أنك أهنت غير زيد ، وأنه لا خلاف فى حصول الفعل « الاهانة » تحقيقا لمعنى الاختصاص ، والاستدراك بلكن يفيد أن الخلاف فى وقوع الفعل ، وفى هذا تعارض ، لأن النزاع فى متعلق الفعل المذكور هل هو زيد أو غيره وليس النزاع فى الفعل نفسه هل هو الإهانة أو الإكرام ، ولذلك فالصحيح أن يقال : لكن عمرا .

يقول الإمام عبد القاهر : فلو قلت : ما زيدا ضربت ولا أحدا من الناس ، كان فاسدا ومما ينبغى أن تعلمه : أنه يصح لك أن يقول : ما ضربت زيدا ولكنى أكرمته ، فتعقب الفعل المنفى بإثبات فعل هو ضده ، ولا يصح أن يقول : ما زيدا ضربت ولكنى أكرمته وذاك أنك لم ترد أن تقول : لم يكن الفعل هذا ولكن ذاك ، ولكنك أردت أنه لم يكن المفعول هذا ، ولكن ذاك . فالواجب إذن أن تقول : ما زيدا ضربت ولكن عمرا(١) .

٢ – كون المعمول محل الإنكار ، كقوله تعالى : « أغير الله أتخذ وليا(٢) » فقد قدم المعمول « غير الله » على العامل « اتخذ » للإنكار أن يتخذ غير الله وليا ، فالاستفهام فى الآية الكريمة واقع على معنى أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا ، فهو لا ينكر عليهم اتخاذ الولى ، إنما ينكر أن يكون هذا الولى غير الله .

---

(١) دلائل الإعجاز ٨٥ .

(٢) الأنعام ١٤ .

يقول الإمام عبد القاهر . تقديم الاسم المفعول ، يقتضى أن يكون الإنكار فى طريق الإحالة والمنع ، من أن يكون بمثابه أن يوقع به مثل ذلك الفعل ، فإذا قلت : أزيدا تضرب ؟ كنت قد أنكرت أن يكون زيد بمثابة أن يضرب ، أو بموضع أن يجترأ عليه ويستجاز ذلك فيه ، ومن أجل ذلك قدم « غير » فى قوله تعالى : « قل أغير الله أتخذ وليا » .. وكان له من الحسن والمزية والفخامة ما تعلم أنه لا يكون لو آخر ، فقيل « قل أأتخذ غير الله وليا » وذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك : أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا ، وأيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك ، وأيكون جهل وعمى أعمى من ذلك ، ويكون شىء من ذلك إذا قيل « أأتخذ غير الله وليا » وذلك لأنه حينئذ الفعل(١) أن يكون فقط ، ولا يزيد على ذلك فاعرفه(٢) .

وكقولك « أبعد طول التجربة تنخدع بهذه الزخارف » فأنت لا تنكر عليه الانخداع ، لأنه أمر شائع ، وإنما تنكر عليه أن يكون الانخداع منه بعد طول التجربة .

وقولك أيضا : أفى الشر تسعى ، وقد عرفت عواقبه ، فأنت لا تنكر عليه « سعيه » وإنما تنكر عليه أن يكون السعى منه فى الشر لا فى الخير ، وقد عرف مآل الشر .

— وكما ترى — قدم المعمولان « الظرف » و « الجار والمجرور » على عامليهما لأنهما محل الإنكار .

---

(١) أى أن الإنكار يتناول أن يكون الفعل .

(٢) دلائل الإعجاز ٨٢ .

٣ — الإهتمام بشأن المقدم، كقولك : «الكتاب لزمت» و «تكاليف الحياة سئمت» فالأهم تعلق اللزوم بالكتاب، والسآمة بتكاليف الحياة .

٤ — التعجيل بالتبرك كقولك : محمداً ﷺ اتبعت.

٥ — التعجيل بالمسرة : كقولك : نجاحاً حققت أو بالمساءة، كقولك للمهمل رسوبا نلت وهناك أغراض أخرى يدركها ذو الذوق السليم، والطبع المستقيم .

تقديم بعض المعمولات على بعض

ترى البليغ يقدم بعض المعمولات على بعض، لأغراض بلاغية تكسب الكلام حسناً وبهاء ومن هذه الأغراض :

١ — أن الأصل فى ذلك هو التقديم، ولا مقتضى للعدول عنه، كقولك «أدى محمد واجبه» فقد قدم الفاعل «محمد» على المفعول «واجبه» لأنه الفاعل، والأصل أن يقدم على المفعول، وكالفاعل فى أصالة التقديم «المفعول الأول» كقولك «أعطيت عليا دينار» فإن الأصل فيه التقديم، لما فيه من معنى الفاعلية، إذ هو الآخذ للدينار، فهو فى قوة قولك: أخذ منى على ديناراً .

يقول صاحب المطول : كالفاعل فى نحو «ضرب زيد عمراً» فإن أصله التقديم على المفعول، لأنه عمدة يفتقر إليه فى الكلام، والمفعول فضله يستغنى عنه فيه، والعمدة أحق بالتقديم، ولأنه كالجزء من الفعل، فينبغى ألا يفصل بينهما بشىء، والمفعول الأول فى نحو «أعطيت زيداً درهما» فإن أصله التقديم على المفعول الثانى لما فيه من معنى الفاعلية، وهو أنه عاط أى آخذ العطاء(١) .

---

(١) المطول ٢٠١

٣ - كون المقدم أهم . والعناية به أتم ، فيقدم المفعول على الفاعل في إذا كان المقصود معرفة من وقع عليه الفعل لا من وقع منه ، كما إذا خرج رجل على السلطان ، وعاث في البلاد ، وكثر منه الأذى ، فقتل ، وأردت أن تخبر بقتله فتقول « قتل الخارجي فلان » إذ ليس للناس فائدة في أن يعرفوا قاتله ، وإنما الذي يريدون علمه ، هو وقوع القتل به ليخلصوا من شره(١) .

يقول الإمام عبد القاهر : لأنه يعلم أن ليس للناس في أن يعلموا أن القاتل له « زيد » جدوى وفائدة فيعنيهم ذكره ويهمهم ، ويتصل بمسرتهم ، ويعلم من حالهم أن الذي هم متوقعون له ، ومتوقعون له ، ومتطلعون إليه ، متى يكون وقوع القتل بالخارجي المفسد ، وأنهم قد كفوا شره وتخلصوا منه(٢) .

ويقدم الفاعل إذا كان الغرض معرفة من وقع منه الفعل لا من وقع عليه ، كما إذا كان رجل ليس له بأس، ولا يقدر فيه أن يقتل ، فقتل رجلا ، وأردت أن تخبر بذلك، فتقول : قتل فلان رجلا بتقديم القاتل، لأن الذي يعني الناس من شأن هذا القتل ندوره وبعده عن الظن(٣).

يقول الإمام عبد القاهر : الذي يعنيه ، ويعني الناس من شأن هذا القتل طرافته ، وموضع الندرة فيه .. ومعلوم أنه لم يكن نادراً وبعيداً من حيث كان واقعاً بالذي وقع به ، ولكن من حيث كان واقعاً من الذي وقع منه(٤) .

يقول الخطيب القزويني : وعليه قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم من

---

(١) الايضاح ٦٨
(٢) دلائل الإعجاز ٧٤
(٣) الإيضاح ٦٨
(٤) دلائل الإعجاز ٧٤

إملاق نحن نرزقكم وإياهم »(١) وقوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم(٢) قدم المخاطبين فى الأولى دون الثانية ، لأن الخطاب فى الأولى للفقراء ، بدليل قوله تعالى « من إملاق » فكان رزقهم أهم عندهم من رزق أولادهم،فقدم الوعد برزقهم على الوعد برزق أولادهم، والخطاب فى الثانية للأغنياء بدليل قوله تعالى:«خشية إملاق » فإنه لايخشى الفقر إلا الغنى فكان رزق أولادهم هو المطلوب دون رزقهم لأنه حاصل، فكان رزق أولادهم أهم ، فقدم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم(٣) .

٣ — أن يكون فى التأخير إخلال بالمعنى المراد ، كقوله تعالى: وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه »(٤) فقد قدم « من آل فرعون » على « يكتم إيمانه » ولو أخر فقيل : « وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون » لتوهم أن قوله « من آل فرعون » من صلة يكتم ومتعلق به، وفى هذا إخلال بالمعنى المقصود لأن الغرض بيان أن ذلك الرجل من آل فرعون فيفيد عناية الله تعالى بموسى ورعايته اه .

يقول صاحب المطول : يعنى أنه قد ذكر لرجل ثلاثة أوصاف ، والسبب فى تقديم الأول أعنى « مؤمن » ظاهر ، لأنه شرف الأوصاف ، وأما الثانى فسبب تقديمه على الثالث أن لايتوهم خلاف المقصود(٥) .

٤ — رعاية الفاصلة ، كقوله تعالى : فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لاتخف إنك أنت الأعلى(٦) .

---

(١) الأنعام ١٥١ — (٢) الإسراء ٣١

(٣) الإيضاح ٦٨ — (٤) غافر ٢٨

(٥) المطول ٢٠٢ — (٦) طه ٦٧ ، ٦٨

فقد قدم الجار والمجرور والمفعول على الفاعل ، مراعاة للتناسب بين الفواصل المختومة بالألف ، لتكون على نسق واحد يملك السمع ويأخذ بالألباب .

يقول ابن يعقوب المغربي : قدم خيفة على موسى ، ولو كان فاعلا ، لرعاية ما بعده وماقبله من الفواصل المختومة بالألف ، إذ لو أخر خيفة فات ذلك(١) .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ٢ — ١٦٤

أهم المراجع

١ — أدب الكاتب ، ابن قتيبة
٢ — أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجانى
٣ — إعجاز القرآن ، الباقلانى
٤ — أمالى المرتضى ، الشريف المرتضى
٥ — أسس النقد الأدبى عند العرب ، د/أحمد بدوى
٦ — الإيضاح ، الخطيب القزوينى
٧ — الأغانى ، أبو الفرج الأصفهانى
٨ — الأدب الكبير والأدب الصغير ، ابن المقفع
٩ — أصول النقد الأدبى ، الأستاذ أحمد الشايب
١٠ — الأساس فى النقد والبلاغة ، د/أحمد الحوفى
١١ — البلاغة تطور وتاريخ ، د/ شوقى ضيف
١٢ — البيان والتبين ، الجاحظ
١٣ — البديع ، ابن المعتز
١٤ — البيان العربى ، د/بدوى طبانه
١٥ — البيان فى إعجاز القرآن ، الخطابى .
١٦ — بغية الإيضاح ، الأستاذ عبدالمتعال الصعيدى .
١٧ — تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة
١٨ — تلخيص البيان ، الشريف الرضى
١٩ — تاريخ علوم البلاغة ، المراغى
٢٠ — تاريخ نشأة علوم البلاغة وأطوارها... د/عبد العزيز عرفه
٢١ — تفسير القرطبى ، الإمام القرطبى .
٢٢ — توضيح المعانى ، د/ على العمارى

٢٣ — جواهر البلاغة ، الأستاذ أحمد الهاشمي
٢٤ — الحيوان ، الجاحظ
٢٥ — حقائق التأويل في متشابه التنزيل ، الشريف الرضي
٢٦ — حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ، الشيخ الدسوقي
٢٧ — حاشية السيد على المطول ، سيد شريف
٢٨ — خصائص التراكيب ، د/ محمد أبو موسى
٢٩ — دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني
٣٠ — ديوان المتنبي ، شرح العكبري .
٣١ — دفاع عن البلاغة ، الأستاذ الزيات
٣٢ — سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي
٣٣ — شروح التلخيص ، التفتازاني وابن يعقوب والسبكي وغيرهم .
٣٤ — الصناعتين ، أبو هلال العسكري
٣٥ — الصبغ البديعي في اللغة العربية د/ أحمد موسى
٣٦ — العمدة ، ابن رشيق
٣٧ — عروس الأفراح ، بهاء الدين السبكي .
٣٨ — العصر العباسي الأول ، د/ شوقي ضيف
٣٩ — فن البلاغة ، د/عبد القادر حسين
٤٠ — الكامل ، المبرد
٤١ — الكشاف ، الزمخشري
٤٢ — مقدمة في نشأة البلاغة ، الشيخ محي الدين عبد الحميد
٤٣ — مجاز القرآن ، أبو عبيدة
٤٤ — معجم الأدباء ، ياقوت الحموي
٤٥ — الموازنة ، الآمدي
٤٦ — المجازات النبوية ، الشريف الرضي
٤٧ — مواهب الفتاح ، ابن يعقوب المغربي

٤٨ — المنهاج الواضح ، الأستاذ حامد عونى
٤٩ — المطول ، سعد الدين التفتازانى
٥٠ — المعانى فى ضوء أساليب القرآن ، د/عبد الفتاح لاشين
٥١ — مفتاح العلوم . أبو يعقوب يوسف السكاكى
٥٢ — من بلاغة النظم العربى ، د/ عبد العزيز عرفه
٥٣ — المعانى ، د/ أحمد شمله ، د/ حمزة الدمرداش ، د/ محمد حسن شرشر
٥٤ — معاهد التنصيص ، الشيخ عبد الرحيم العباسى
٥٥ — نقد الشعر ، قدامه بن جعفر
٥٦ — النكت فى إعجاز القرآن ، الرمانى
٥٧ — النقد الأدبى ، الأستاذ أحمد أمين
٥٨ — الوساطه بين المتنبى وخصومه ، على بن عبد العزيز الجرجانى
٥٩ — وفيات الأعيان ، ابن خلكان

الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب
٥٩٣٠ / ١٩٨٥ م